توفيق الحكيم

تاريخ حياة معدة

obeikandl.com

القاهرة

١٩٣٨

توفيق الحكيم

تاريخ حياة معِدة

القاهرة

١٩٣٨

obeikandl.com

obeikandl.com

كتب توفيق الحكيم

التى نشرت

محمد : (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ومطبعة المعارف عام ١٩٣٦)

شهرزاد : (مطبعة دار الكتب عام ١٩٣٤ وترجم ونشر فى باريس عام ١٩٣٦ بمقدمة لجورج ليكونت عضو الأكاديمية الفرنسية)

أهل الكهف : (مطبعة مصر ومطبعة الاعتماد عام ١٩٣٣)

عودة الروح (فى جزئين) : (مطبعة الرغائب عام ١٩٣٣ . وترجم ونشر بالروسية فى ليننجراد عام ١٩٣٥ وبالفرنسية فى باريس عام ١٩٣٧)

أهل الفن : (مطبعة دار الهلال عام ١٩٣٤)

مسرحيات توفيق الحكيم : المجلد الأول : سر المنتحرة ، نهر الجنون ، رصاصة فى القلب ، جنسنا اللطيف . (مطبعة الاعتماد عام ١٩٣٧)

عهد الشيطان : (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٨)

obeikandi.com

« تابع » كتب توفيق الحكيم

التي نشرت

مسرحيات توفيق الحكيم	المجلد الثانى : الخروج من الجنة ، أمام شباك التذاكر ، الزمار ، حياة تحطمت . (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٧)
يوميات نائب فى الأرياف	(مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٧)
عصفور من الشرق	(مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٨)
تحت شمس الفكر	(مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٨)
تاريخ حياة معدة	(مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٨)

obeikandi.com

آه ... حبذا لو كان لمصدى

مثل هذا التاريخ المجيد . !

obeikandl.com

obeikandl.com

بيان

مادمنا في صدد «المعدة»، فلأبين للناس كيف «طبخت» لهم هذا اللون من ألوان الأدب. لقد استحضرت اللحم والبقل والتوابل والأبازير من حوانيت أربعة مشاهير: «الجاحظ» و«ابن عبد ربه» و«الخطيب البغدادي» و«بديع الزمان». فقد بهرني حقاً وأسال لعابي ما وجدته لديهم من اللذائذ والطرائف. غير أني رأيت كل هذا مبعثراً ضمن بضائعهم، وملقى على غير نظام، حتى وقع الملح على السكر. كما وجدت أكثر هذه الأشياء شائعة مكررة بنصها وتفصيلها عند الأربعة، كل يضعها من حانوته نفس الوضع، ويعرضها عين العرض. فملأت يدي مما تخيرت من أطايبها وذهبت به إلى «مطبخ» فني، حيث مزجته وخلطته وجعلت منه «عجينة» واحدة، صنعت منها هذه القصة المتصلة الفصول؟

ت . ا

opeikandi.com

obeikandl.com

الفصل الأول

انتصف النهار . وصاح مؤذن الظهر ، لا من مسجد ذلك الحى من أحياء « المدينة » ، لكن من بطن « أشعب » : أشهر الطفيليين فى عصره ، وأظرفهم حديثاً ، وأقبحهم وجهاً ، وأزراهم هيئة ، وأجملهم صوتاً وأحذقهم فى فنون الغناء .

وكان جالساً إلى معشوقته « رشأ » من أول ذلك النهار ، يحادثها ويضاحكها ويطارحها الغناء منشداً :

دموع عينى لها انبساط
ونوم عينى به انقباض

وكانت الحسناء متكئة على فراش من ديباج أخضر ، فى دارها الصغيرة ، أمام بستان قد أزهر بنبت الربيع . فأجابته مترنمة ، والسحر والفتنة يكادان ينطقان فى عينيها :

هـــذا قليل لمن دهته

بلحظها الأعين المراض

فتنهد العاشق ورفع عقيرته :

فهل لمولاتى عطف قلب

أو للذى فى الحشا انقراض

فأجابته الجميلة فى ابتسامها الفاتن ، ولفظها المذب وصوتها الرخيم :

إن كنت تبغى الوداد منا

فالود فى ديننا قراض

فتنهد أشعب هذه المرة تنهداً طويلاً ، وأرسل بصره إلى النافذة ، ورأى ميل الشمس ، فتململ والتفت يمنة ويسرة ثم قال للحسناء صاحبة الدار :

— مالى لا أسمع للطعام ذكراً ؟!

فتغير وجه الجميلة وقالت :

— سبحان الله ! أما تستحى يا شيخ ؟ أما فى وجهى

obeikandl.com

من الحسن ما يشغلك عن هذا ؟ !

فسكت أشعب كالخجل . ثم جعـل ينظر إلى وجهها وعينيها متمسكا بأهداب الصبر والقناعة .

فقالت له :

— امض فى غنائك ، فإنك حسن الغناء . أسمعنى صوتاً لم أسمعه من قبل . ما هو أحسن الغناء عندك ؟

فأجاب أشعب بغير تردد :

— هو نشيش المقلى !

فقالت له فى شىء من الامتعاض والتأنيب :

— أهذا كلام يقال فى مثل هـذا الموقف الذى نحن فيه ؟

— صدقت . لقد كان يحمل بى أن أتحدث عن الحب الذى فى الحشا .

وأمسك بالعود مرة أخرى . فأسرعت الجارية تقول :

obeikandi.com

— نعم ، صف لى ما فى الحشا من الحب .

فنظر إليها العاشق مليا :

— وماذا كنت أصنع إذن منذ الصباح ؟

— زد فى الوصف

— وصف ماذا ؟

— ما فى الحشا من الهوى

— من « الهوا » .. هذا والله صحيح

ورفع العاشق عقيرته بالغناء :

إذا كان فى بطنى طعام ذكرتها
وإن جعت يوماً لم تكن لى على ذكر
ويزداد حبي إن شبعت تجدداً
وإن جعت غابت عن فؤادى وعن فكرى

***

ولم تر الجارية مع صاحبها هذا حيلة ، فقامت تهيئ له الطعام . ولم تمض ساعة حتى فاز أشعب ببغيته الحقيقية

ووضع أمامه الخوان . وكان هذا العاشق الولهان إذا أكل ذهب عقله وجحظت عينه وسكر وسدر وانبهر ، وتربد وجهه ، ولم يسمع ولم يبصر . فتناول القصعة وهى كجمجمة الثور فأخذ بحضنها ، وما زال ينهشها طولا وعرضاً ورفعاً وخفضاً ، لا يفصل تمرة قط عن تمرة ولا يرمى بنواة قط ولا ينزع قمعاً ولا ينفى عنه قشراً ، ولا يفتشه مخافة السوس والدود . فلما رأت صاحبته ما يعتريه وما يعترى الطعام منه ، لم تزد على أن همست كالمخاطبة لنفسها :

— هذا والله هو العشق !

ثم نظرت إليه ، وقد انتقل إلى ألوان أخرى من الطعام جعل يخاطبها قبل أن يمد إليها يده :

— بارك الله فيك من « فالوذج » صاف يقرأ نقش الدرهم من تحتك ! بارك الله فيك من ثريدة ملساء كأنها خد الحبيب ! بارك الله فيك من خبز رقاق كأنها آذان الفيلة !

وهجم بيديه كأنه طالب ثأر ، فابتدرته الجارية قائلة :

— أتحبنى ؟

فلم يجب ، ولم يلتفت إليها . ولم يبد عليه أنه سمع منها شيئاً . ومضى فى التهامه ومضغه . فتوسلت إليه أن يتكلم فصاح متبرماً :

— أما سمعت قول من قال : « إذا كنت على مائدة فلا تتكلمن فى حال أكلك ، وإن كلمك من لا بد لك من جوابه فلا تجبه إلا بقول نعم ، فإن الكلام يشغل عن الأكل ، وقول « نعم » مضغة .

فضحكت القينة . ثم قالت :

— ولكنك لم تجبنى حتى بقول « نعم » .

فنظر إليها وفمه ممتلئ نظرة من يسألها عما قالت . فقد نسى ، فأجابت :

— سألتك « أتحبنى » ؟

فلم يلفظ حرفاً ؛ وأين له الفم الذى يلفظ شيئاً ؟ !

فسكتت الجارية لحظة ، ثم رأت أن تحتال عليه وتحرجه فقالت :

— أتحب أبا بكر الصديق ؟

فبلع لقمة وشرب جرعة من ماء ، ونظر إليها نظرة المتذر المشغول عن الجواب ، غير أنها مضت فى تضييق الخناق عليه :

— أتحب عمر بن الخطاب ؟

وصادفت العاشق فترة فراغ بين لقمة ولقمة ، فأجابها على عجل ويده مسرعة إلى الخوان :

— ما ترك الطعام فى قلبي حباً لأحد !

* * *

قام أشعب عن الخوان الذى كان ، وهو يتجشأ ويقول لصاحبته :

— جعلت فداك ما أكرمك ! إذا كان غداً فاصنعى

لى هريسة ، فأنت أحذق بها .

فقالت له باسمة :

— إنك لشديد النسيان . أما تذكر أنك من أيام قد تشهيت علىّ « هريسة » ، فبعثت بها إليك ؟

فصاح العاشق طرباً :

— نعم . فإنى أتشهى عليك إذن « لوزينج » رق قشره واشتدت عذوبته غريقاً فى سكر ودهن لوز ... يشد فؤاد الحزين ويرد نفس الشجين ، ابعثى لى به غداً أصلحك الله ، مع شىء من النبيذ وما يصلحه .

فقالت :

— أنسيت أنى بعثت إليك منذ ليال هذا اللوزينج وهذا النبيذ .

فقال :

— إذن فإنى أشتهى ، حفظك الله وأبقاك ، ثريدة دكناء من الفلفل ، رقطاء من الحمص ذات جناحين من

اللحم فأضرب فيها كما يضرب الولى السوء فى مال اليتيم .

فقالت كالمخاطبة لنفسها ، ساخرة :

— أبقاك الله وحفظك ، رأينا الحب يكون فى القلب ، وحبك ليس يجاوز المعدة !

— لم أسمع منك ! ماذا قلت ؟

— لا شىء ! أخبرنى أنت . أين دارك ولماذا لم تدعنى يوماً إلى طعامك !

فنظر إليها أشعب نظرة الجزع والذعر :

— دارى ! أما علمت أنى أسكن عند الكندى !

— ومن الكندى ؟

— هو أبخل أهل الأرض طرًّا ، وهل يستطيع ساكن أو جار أن يصنع طعاماً دون أن يبعث إلى صاحب الدار بطبق . إنه لا يزال يقول للساكن وربما للجار : « إن فى الدار امرأة حبلى ، وإن الوحمى ربما أسقطت من ريح القدور الطيبة ، فإذا طبختم فردوا شهوتها ولو

بغرفة أو لمقة . فإن لم تفعلوا ذلك بعد إعلامى إياكم فكفارتكم أن أسقطت غرة عبد أو أمة » ، فكان بذلك ربما يوافى منزله من قصاع السكان والجيران ما يكفيه الأيام . فيأكل هو وعياله ويقول لهم : « أنتم أحسن حالا من أرباب هذه الضياع . فلكل بيت منهم لون واحد وعندكم ألوان » ، فهل تريدين أصلحك الله ، أن أدعوك إلى دار مثل هذا الرجل ؟

فضحكت وقالت :

— أفقير هو ؟

— إنه أغنى أهل المدينة !

فصمتت الجارية لحظة . ثم نظرت إلى أشعب مليا وقالت :

— ولكنى أريد أن أموت وآكل من طعامك !

فتفكر العاشق قليلا ثم أجاب :

— مهلا سيدتى . سأدعوك إن شاء الله إلى طعام

وشراب وغناء . . .

— متى ؟

— يوم يحين وقت ذلك .

ثم أسرع فاستوى قائماً ومد إليها يده مودعاً .
فمدت إليه يداً صغيرة كأنها حلية من عاج . فلمح فى إصبعها خاتماً . فاستبقى يدها فى يده وقال فى صوت يسيل رقة ولطفا :

— سيدتى جعلت فداك ! ناولينى هذا الخاتم الذى فى إصبعك لأذكرك به .

فسحبت يدها فى رفق وتضاحكت فى خبث وقالت :

— إنه ذهب وأخاف أن تذهب .

ثم أسرعت فالتقطت من الأرض عوداً يابساً سقط عن شجرة قرب النافذة وأعطته إياه قائلة :

— ولكن خذ هذا العود لعلك تعود !

obeikandl.com

الفصل الثاني

جاء العصر وأشعب يتسكع في الأسواق إلى أن انتهى به المطاف أمام بستان من بساتين الكندى . فوقف وأرسل بصره ، فوجد صاحبه جالساً تحت شجرة على ماء جار وسط خضرة ، وقد بسط بين يديه منديلا فيه لحم سكباج بارد وقطع جبن وزيتونات وصرة فيها ملح وأخرى فيها أربع بيضات . فاقترب منه ومر به مسلماً عليه . فرد الكندى السلام قائلا :

— هلمّ عافاك الله .

وإذا أشعب أسرع من خطف البرق في صحن السماء قد انثنى راجعاً يريد أن يمدى جدول الماء . فصاح به الكندى وهو يأكل :

— مكانك ، فإن العجلة من عمل الشيطان .

فوقف أشعب مأخوذاً ... فسأله الكندى :

— تريد ماذا ؟

فأجاب أشعب :

— أريد أن أتغدى .

فحملق فيه الكندى :

— ولم ذلك ؟ وكيف طمعت فى هذا ؟ ومن أباح لك مالى ؟

فقال أشعب :

— أو لست قد دعوتنى ؟

فأجاب الكندى :

— ويلك ! لو ظننت أنك هكذا أحمق ما رددت عليك السلام . ماذا كان بيننا غير سلام ورد السلام ، أى كلام بكلام . ولكنك تريد أن يكون كلام بفعال ، وقول بأكل . فهذا ليس من الإنصاف .

وازدرد الرجل بيضة مما بين يديه . وجعل

أشعب ينظر إليه لحظة ثم قال له :

— لقد رأيتك تأكل وحدك .

فبلع الكندى ريقه ثم قال :

— ليس علىّ فى هذا الموضع مسألة . إنما المسألة على من أكل مع الجماعة . لأن ذلك هو التكلف . وأكلى وحدى هو الأصل . وأكلى مع غيرى زيادة فى الأصل . وإذا كانت الوحدة خيراً من جليس السوء ، فإن جليس السوء خير من أكيل السوء . لأن كل أكيل جليس . وليس كل جليس أكيلا !

فقال أشعب متخابثاً :

— إنما أردت أن أؤاكلك لأسخِّيك وأنفى عنك اسم البخل .

فأجاب الكندى وهو يلقى فى حلقه زيتونة :

— لا أعدمنى الله هذا الإسم . فإنه لا يقال فلان بخيل إلا وهو ذو مال . فسلِّم إلىّ المال وأدعنى بأى اسم شئت .

فقال أشعب :

— ولا يقال أيضاً فلان سخى إلا وهو ذو مال .

فقد جمع هذا الإسم الحمد والمال ، أما اسم البخل فقد جمع المال والذم . فأنت قد اخترت أخسهما وأوضعهما .

فقال الكندى :

— بينهما فرق .

فقال أشعب :

— ما هو ؟

فأجاب الكندى :

— فى قولهم بخيل تثبيت لإقامة المال فى ملكه .

وفى قولهم سخى إخبار عن خروج المال من ملكه .

فالبخل اسم فيه ذم ولكن فيه حفظاً ، والسخاء اسم فيه حمد ولكن فيه تضييعاً . والمال حقيقة ومنفعة وحيازته قوة ، أما الحمد فهو ريح وسخرية والاستماع له ضعف !

وماذا ينفع الحمد إذا جاع البطن وعرى الجلد

obeikandi.com

وضاع العيال وشمت الحساد ؟!

وظل يأكل ، وأشعب ينظر إليه ، حانقا فى دخيلة نفسه على هذا اللؤم ، الذى لا تنفع فيه حيلة . غير أنه تلطف له ودنا منه قائلا :

— وما عليك لو جلست إليك ساعة أغنيك حتى تطرب وأضحكك حتى يزول عنك هذا القطوب

فصاح الكندى :

— لا أريد أن أطرب الساعة ولا أن أضحك .

— وما يمنعك من ذلك ؟

— يمنعنى منه أن الإنسان أقرب ما يكون من البذل والعطاء إذا طرب وضحك .

فسقط فى يد أشعب ولم يدر من أى مدخل يدخل إلى هذا الرجل ، وهو كلما فتح له باباً أغلقه . ولم يقنط أشعب مع ذلك . وخطر له خاطر أعجبه . فأسرع يقول لصاحبه :

obeikandi.com

— لقد ظفرت لك بساكن جديد ، رضى أن ينزل دارك الخالية وقبل دفع الأجر وقضاء الحوائج والوفاء بالشرط .

فأبرقت أسرة الرجل ووضع اللقمة من يده وقال :

— وأين هو عافاك الله !

— إذا رأيت أن أدعوه . .

— متى ؟

— الليلة إلى عشائك .

— عشائى !

وعاد إلى قطوبه . فأراد أشعب أن يهون عليه الخطب فقال له :

— لا تتكلف شيئاً لهذا الضيف . إنه يرضى بما حضر .

فأسرع الكندى يقول :

— ليس يحضر شيء . وقولك « بما حضر »

معناه أنه لا بد من أن يقع على شيء .

فقال أشعب :

— قطعة مالح ...

— وقطعة مالح أليست هي شيء ؟

— نكتفي بالشرب إذن على الريق .

— لو كان عندنا نبيذ كنا في عرس .

فرأى أشعب أن يخجله ويستحثه فقال له :

— أنا أحضر النبيذ .

فقال الكندي للفور :

— إذا صرت إلى إحضار النبيذ فأحضر أيضاً ما يصلح للنبيذ . .

فقال أشعب :

— ليس يمنعني والله من ذلك ومن إحضار النقل والريحان إلا أن أحسب أنا صاحب الدعوة وليس يجوز ذلك ، إلا أن يكون لك فيها أثر ...

obeikandi.com

فتفكر الكندى لحظة ، ثم صاح كمن وجد الفرج :

— لقد انفتح لى باب : لكم فيه صلاح وليس عليّ فيه فساد ...

والتفت إلى نخلة عالية ملساء كأنها ثعبان قائم فى طرف من أطراف البستان وقال :

— فى هذه النخلة زوج يمام ولهما فرخان مدركان ، وإن نحن وجدنا إنساناً يصعدها ، ولم يطيرا ، فهما قد صارا ناهضين ، جعلنا الواحد « طباهجة » والآخر « كردجا » فكان نعم العشاء . فهل لك يا أشعب فى صعود هذه النخلة ...

فنظر أشعب إلى النخلة وقد كاد رأسها يمس السحاب ، وصاح :

— هذه لا تُصعد ولا يرتقى عليها إلا إذا كان اليوم آخر عمرى ، وأردت من ذلك دق عنقى . اللهم اغننى عنك وعن طعامك يا شيخ !

وأراد أن ينصرف يائساً . ولكنه فكر فى أمر عشائه وليس فى المدينة الليلة وليمة ولا عرس ينسل إليه فعاد ينظر إلى النخلة . فرأى مرة أخرى أن علوها الشاهق يملأ النفس رعباً . وأدرك أن صعودها لا يقدم عليه إلا من طلب الموت ، فأخبر الكندى أن يعفيه وأن يطلب فى الجيران إنساناً يصعدها . فسألوا الجيران فلم يقبل أحد أن يفعل ذلك . ودلهم بعض الناس آخر الأمر على أكار تلك حرفته . فما زال الرسول يطلبه حتى وقع عليه ، فلما جاء ونظر إلى النخلة تردد هو أيضاً ، فما زالوا به يشجعونه ويغرونه حتى استخار الله وارتقى النخلة . فلما صار فى أعلاها طار أحد الفرخين . فأنزل الآخر وسلمه إلى الكندى ، ووقف يتصبب عرقاً فى انتظار الأجر ، فأخرج الكندى «فلساً» وضمه فى يد الأكار . فنظر فيه ملياً ثم أراه للحاضرين من الجيران والمشاهدين ، فقالوا جميعاً :

— فلساً بعد هذا الجهد كله ، وهو غني ! .. لو كان أعطى درهما على الأقل ، إنه ذو مال !

فالتفت إليهم الكندى صائحاً :

— إنى لم أجمع هذا المال بمقولكم فأفرقه بمقولكم !

وأشاح بوجهه عنهم والتفت إلى أشعب قائلا :

— الآن قد ظفرنا بالعشاء . فابعث لنا في طلب صاحبك الساكن الجديد :

فنظر أشعب إليه شزراً :

— فرخ يمام واحد ! هو « الطباهج » و « السكردناج » . وهو كل العشاء !

فتفكر الكندى لحظة ثم قال :

— انتظر ، لا تبرح :

وأشار إلى الأكار الواقف يتميز غيظاً . فترضاه وأغراه وذهب به . وغبرا ملياً . ثم عادا يحملان أرزاً بقشره . وليس معهما شيء مما خلق الله إلا ذلك الأرز .

obeikandi.com

فلما صار الكندى إلى بستانه كلف الأكار أن يجشه في مجشة له ، ثم ذراه ، ثم غربله ، ثم جش الواش منه . إلى أن فرغ الأكار من ذلك كله فكلفه الكندى أن يطحنه على ثوره وفى رحاه . حتى فرغ من طحنه . فكلفه أن يغلى له الماء وأن يحتطب له وأن يعجنه بالماء الحار لأنه به أكثر نزلا . ثم كلف الأكار أن يخبزه . ثم طلب إلى أشعب وبعض الحاضرين من صبية الجيران أن ينصبوا له في الجدول الشصوص للسمك . وأن يسكروا الدرياجة على صغار السمك كى لا تدخل فى السواقى ، وأن يدخلوا أيديهم فى جحرة الشلابى ، حتى يصيبوا من السمك شيئاً يجعل كبابا على نار الخبز تحت الطابق فلا يحتاج من الحطب إلى كثير . فما زال أشعب منذ ذلك العصر إلى الليل فى كد وجوع وانتظار إلى أن أذن الله بالفرج وفرغ من أداء نصيبه من العمل . وجاء الخبر من بيت الكندى أن اليمامة التى كان قد بعث بها لتطبخ

طباهجاً ، قد نضجت فصاح الكندى صيحة الظفر :

— يا أشعب ! هلموا إلى عشائى ، وهنيئاً مريئاً لكم طعامى ؛ فأحضر صاحبك إلى دارى تجدون الخوان قد نصب كأنه إيوان كسرى وعرش هرقل !

* * *

جرى أشعب إلى صديق له من طرازه يدعى « بُنان » . فقص عليه الأمر وتوسل إليه أن يأتى معه إلى دار الكندى فيظهر له أنه الساكن المنتظر حتى يبرأ أشعب من وعده . فإذا انتهى العشاء . وعاين الصديق الدار كان له أن يتعلل ويتمنع ويبدى الرفض ويطلب الفسخ . ولم يكن عند بنان فى تلك الليلة ما يتعشى به هو أيضاً . فما علم أن العشاء مضمون حتى خرج من داره الخاوية لوقته مع أشعب . . وسارا فى الطريق فأوصاه أشعب أن يفهم الكندى أول الأمر أنه قابل الكراء وقضاء الحوائج والوفاء بالشرط .

obeikandi.com

فالتفت بنان إلى صاحبه قائلا :

— قد فهمت دفع الكراء وقضاء الحوائج فما معنى الوفاء بالشرط ؟

فأجاب أشعب :

— في شرطه على السكان أن يكون له روث الدابة ، وبعر الشاة ، ونشوار العلوفة ، وأن لا يخرجوا عظما ولا يخرجوا كساحة ، وأن يكون له نوى التمر وقشور الرمان ، وغرفة من كل طبخة لمن يزعم أنها حبلى في بيته .

. . .

أقبل الضيفان على دار الكندي فألفياه قد أعد الخوان وجلس في انتظارهما يتلمظ ويقول :

ومن البلية في الموائد أن يرى

قوم جياع في انتظار القادم

فقعد أشعب من الفور أمام الطعام وأجلس زميله جواره وهو يقول :

obeikandl.com

سواء علينا قدموا أو تأخروا

نوافى مع الطباخ ساعة يغرف

وأشار إلى صاحبه بنان بعد أن غمزه بكوعه :

— لقد انتظرت صاحبي هذا انتظار الآكل للشبع !

فقال الكندى :

— انظرته إذن قليلا ؟

فأجاب بنان للفور :

— نعم ، لقد انتظرنى مقدار ما يأكل إنسان رغيفاً !

وتناول الخبز . فقال الكندى :

— لقد انتظرك إذن طويلا .

ولم يلتفت الضيفان إلى صاحب الدار ولم يجيباه بعد ذلك . وأشعب وبنان إذا تقابلا على خوان لم يكن لأحد معهما حظ فى الطيبات . فما جاءت القصعة فيها الثريدة كهيئة الصومعة مكللة بتلك اليمامة المعهودة حتى أخذ

أشعب الذى يستقبله ثم أخذ ما عن يمينه وأخذ ما بين يدى صاحب الدار ثم مال على جانبه الأيسر فصنع مثل ذلك ، وعارضه زميله بنان وحاكاه . فلما أن نظر الكندى إلى الثريدة مكشوفة القناع مسلوبة عارية والفرخ كله بين يدى أشعب وزميله إلا قطعة جناح صغيرة بين يديه ، تناولها فوضعها قدام الضيف الجديد واحتسب بها فى سبيل الكرامة والبر والضيافة ، وهو يتميز ويقول ليخفى غيظه الكظيم :

— قالت الحكماء : « عليكم بشرب الماء على الغداء » فلو شرب الناس الماء على الطعام ما اتخموا . وذلك أن الرجل لا يعرف مقدار ما أكل حتى ينال من الماء ، وربما كان شبعان وهو لا يدرى . .

فقال بنان :

— شبعان ! والله نحن إنما نسمع بالشبع سماعاً من أفواه الناس !

obeikandl.com

ثم مد يده إلى الخبز . فغمزه أشعب هامساً :

— تمهل وتحشم ، لا يفطن إلينا وينفر منا . أنت لا تعرفه : لأن يطعن طاعن فى الإسلام أهون عليه من أن يطعن فى الرغيف الثانى !

فسحب بنان يده ، وهو يهمس فى أذن أشعب :

— أو يريد أن يكون بين الرغيف والرغيف فترة نبى !

ولحظهما الكندى وظن أنهما يتساران فى أمر الخبز ويستصغران حجمه . فأمسك برغيف ورطله فى يده وقال :

— يقولون إن خبزى صغير ! فمن الزانى ابن الزانية الذى يستطيع أكل رغيفين منه !

فبهت بنان ، وأراد أن يفتح فاه ، وإذا الباب قد فتح عليهم ودخل منه جار للكندى ، فرأ الجميع السلام وهم يأكلون فردوا عليه ، ولم يعرض الكندى عليه

obeikandi.com

الطعام ، فاستحيا أشعب من الرجل وهو أيضاً جاره في السكن ، فما تمالك أن قال له :

— سبحان الله ! لو دنوت فأصبت معنا مما نأكل .

فتأدب الرجل وقال حياء :

— قد والله فعلت .

فأسرع الكندي يقول :

— ما بعد القسم بالله شيء .

فكتف الرجل بذلك كتفاً لا يستطيع معه قبضاً ولا بسطا ، وتركه في مكانه لا يريم . ولو مد الرجل يده بعد ذلك وأكل لشهد عليه بالكفر . ورأى الرجل دقة موقفه فتحرك منصرفاً خجلا . فرق له أشعب وقال له :

— أين تريد ؟

فقال الرجل :

— إلى منزلي أتوضأ

فقال له أشعب :

obeikandi.com

— ولماذا لا تتوضأ ها هنا . فإن الكنيف خال نظيف ، والغلام فارغ نشيط ، وليس من الكندى حشمة ، ومنزله منزل إخوانه .

فدخل الرجل فتوضأ . والكندى ينفخ من الغيظ ، ولحظه أشعب فقال له :

— هون عليك . إنما كل بغيتى أن أسخيك وأنفى عنك التبخيل وسوء الظن .

فقال الكندى :

— فهمنا أن تدعو الناس إلى غذائى لتسخّينى ، ولكن لا أفهم أن تدعوهم ليخرءوا عندى !

وعاد الرجل فجلس عن كثب وأخرج من جيبه رقعة قدمها إلى الكندى قائلا :

— جاءتنى رقعتك اليوم وفيها أنك تزيد علىّ أجر الدار خمستين ، لأن ابن عمى ومعه ابن له قد نزلا علىّ ضيفين !

فأجاب الكندى على الفور :

obeikandl.com

— نعم ، إذا كان مقام هذين القادمين ليلة أو ليلتين احتملنا ذلك ، وإن كان إطماع السكان فى الليلة الواحدة يجر علينا الطمع فى ليال كثيرة .

فقال الرجل :

— ليس مقامهما عندنا إلا شهرا ونحوه .

فقال الكندى :

— إن دارك بثلاثين درهما وأنتم ستة ، أى لكل رأس خمسة . فأما وقد زدتم رأسين فلا بد من زيادة خمستين . فالدار عليك من يومك هذا بأربعين .

فقال الساكن متعجباً :

— وما يضرك من مقامهما وثقل أبدانهما على الأرض التى تحمل الجبال ، إن ثقل مؤنتهما علىّ أنا دونك . ما هو إذن عذرك لأعرفه ؟

فترك الكندى الأكل واتجه إلى ساكنه قائلا :

— عذرى واضح كالنهار . والخصال التى تدعو إلى

ذلك كثيرة ، وهى قائمة معروفة : من ذلك سرعة امتلاء البالوعة وما فى تنقيتها من شدة المؤونة . ومن ذلك إن الأقدام إذا كثرت كثر المشى على ظهور السطوح والصعود على الدرج فينقشر الجص وينكسر العتب ، وإذا كثر الدخول والخروج والفتح والإغلاق وجذب الأقفال تهشمت الأبواب وتقلعت الرزات . فساكن الدار هو المتمتع بها والمنتفع بمرافقها وهو الذى يبلى جدتها ويذهب عمرها بسوء تدبيره ، وإنه ينسى أن المالك ما أسكن داره إلا بعد أن كسحها ونظفها لتحسن فى عين المستأجر ، فإذا خرج هو ترك فيها مزبلة وخرابا لا تصلحه إلا النفقة الموجعة ، ثم لا يدع بعد ذلك مترساً إلا سرقه ولا سلماً إلا حمله ، وإذا أراد الدق فى الهاون ترك الصخرة المجعولة لذلك ودق على الأجذاع حيث جلس تهاونًا وقسوة وغشا . هذا فضلا عما يحدثه من الشغب مع الجيران والتعرض لهم واصطياد طيورهم وتعريضنا

لشكايتهم . فإذا أردنا أن نجمل الغرم بالغنم ، وأن نطالب بضعة دراهم لإصلاح الفساد المنتظر . سمعنا عبارات الاحتجاج وطولبنا بإبداء الأعذار والأسباب .

وسكت الكندى فجأة . فقد حانت منه التفاتة إلى الضيفين فوجدهما قد انتهزا فرصة اشتغاله بالكلام وأمعنا هما فى محو أثر الخبز والسمك ، إلا « شبوطة » كان قد نجح فى وضعها بين يديه ، وكان قد أكبر أمرها لسمنها وكبرها ولشدة شهوته لها ، وكان قد ظن عند نفسه أنه قد خلا بها وتفرد بأطايبها ، فما كاد يحسر عن ذراعيه ويصمد لها حتى هجمت يد أشعب عليها ، فلما رأى هذه اليد فى السمكة رأى الموت الأحمر والطاعون الجارف وأيقن بالشر وعلم أنه قد ابتلى ، ولم يلبث أشعب حتى قبض على قفا الشبوطة فانتزع الجانبين جميعاً واكتسح ما على الوجهين ، فلما أكل أشعب جميع أطايبها وبقى الكندى فى النظارة ، ولم يبق فى يده مما كان

يأمله في تلك السمكة إلا الغيظ الشديد ، بينما هو يرى أشعب يفرى الفرى ويلتهم التهاماً صاح به :

— حسبك لا يقتلك الطعام !

فأجاب أشعب وفمه ممتلئ :

— إذا كان الأجل موقوتاً ، فلأن أموت شبعاً أحب إليَّ من أن أموت جوعاً !

وقنط الكندى من الأكل مع هذين الرجلين ، فانصرف إلى الحديث مع جاره الساكن واتفق معه على الزيادة فى الكراء كما طلب ، وشيعه إلى الباب ثم عاد إلى الضيفين فوجدهما قد قاما عن المائدة ولم يبق عليها شيء يؤكل . وبنان يتجشأ ويقول .

— لعن الله « القَدَرِيَّة » . . من كان يستطيع أن يصرفنى عن أكل هذا الطعام وقد كان فى اللوح المحفوظ أنى سآكله !

فكظم الكندى غيظه وقال فى نفسه :

— تعال غداً فإن وجدت شيئاً فالعن « القدرية » والعن آباءهم وأمهاتهم !

وجلس الضيفان بعد أن غسلا أيديهما يتخللان من الطعام ، وهما على خير ما يكون الإنسان راحة وهناء . وجعل الكندى ينظر إلى خوانه منتهك الحرمة ، عليه بقايا العظام والأشواك كأنها جثث القتلى بعد المعركة . فساورته الهموم وتحركت فيه غريزة البخل . وشعر بالكرب والغم . فما تمالك نفسه ، وأقبل عليهما يقول فى نبرة المتوسل :

— أسألكما بالله الذى لا شىء أعظم منه ، أنا الساعة أيسر وأغنى ، أو قبل أن تأكلوا طعامى ؟

فقالا معاً :

— ما نشك أنك حين كنت والطعام فى ملكك كنت أغنى وأيسر .

فقال :

obeikandi.com

— فأنا الساعة أقرب إلى الفقر أم تلك الساعة ؟

قالا :

— بل أنت الساعة أقرب إلى الفقر .

فلم يحتمل الكارثة وصاح فى نبرة ألم وندم وغضب :

— آه ! من ذا الذى يلومنى إذن على ترك دعوة قوم قربونى من الفقر وباعدونى من الغنى ! وكلما دعوتهم أكثر كنت من الفقر أقرب !

فرأى أشعب الخطر والضرر كله فى ترك هذا الرجل على هذه العقيده ، فأسرع يقول له :

— ولكن قد فاتك أمر : إنك الليلة إنما تنفق اليسير لتجنى الكثير . ما هذا الطعام القليل النفقة الخفيف المؤونة إلى جانب ما سوف تتقاضاه من هذا الساكن الجديد كراء لدارك الخالية ! أما كنت تقول الساعة إن الغرم بالغنم !.. فأنت والله فى آخر الأمر الغانم الرابح !

فتفكر الكندى لحظة وبدا عليه الاقتناع فاطمأن في الحال قلبه وانفرجت أساريره وضحك للمرة الأولى ضحكة الارتياح .. وقال :

— إذن فادع لى !

فرفع أشعب يديه إلى السماء وقال :

— منّ الله عليك بصحة الجسم وبسطة اليد وسعة الصدر وكثرة الأكل ونقاء المعدة ، وأمتعك بضرس طحون ومعدة هضوم ، مع السعة والدعة والأمن والعافية هذه دعوة مغفول عنها !

obeikandl.com

الفصل الثالث

جعل أشعب وبنان يدللان الكندى ويفكهانه ولم يشكا أنه سيدعو إليهما تلك الليلة بنبيذ فيملآن بيته إلى الفجر نزهة ونشوة ، ولكن الكندى جعل يتغافل ويتناوم . فأمح له أشعب بما يصبو إليه قائلا :

— إن المجلس والله . . ليس فيه غناء ولا نبيذ فهو كالبيت الخرب

فلم يسمع لكلامه صدى . وطال تغافل الكندى فلم يجد أشعب بدا من التصريح . فأقبل عليه يقول :

— اجعلها مرة ليس لها أخت . ودعوة لن تعود إلى مثلها . واضحك واطرب ليلة فى العمر بقليل من نبيذ !

ولما بلغ منه ومنهما المجهود ورأى الكندى أنهما مقيمان مصرّان ، غير منصرفين قبل أن يظفرا منه بما طمعا فيه ،

obeikandi.com

قام فأحضر لهما قربة نبيذ مع أكواب ووضعها بين يدى أشعب وقال له :

— الآن غنّ واطربنى والأمر لله !

فانقض أشعب وبنان على الكؤوس . وشرب بنان شرب العطشان الصادى . وأفرغ اشعب كأسه فى جوفه وهو يرفع عقيرته منشداً :

إمدح الكأس ومن أبدعها

واهج قوماً قتلونا بالعطش

إنما الكأس ربيع باكر

فإذا ما لم نذقها لم نعش

فطرب الكندى للصوت ولكنه قال كالمخاطب نفسه :

— والله ما قتلوكم بالعطش . ولكنكم أنتم قتلتم أنفسكم بالشره .

وملأ كأسه وقال :

obeikandi.com

— غنِّ أيها المغنى !

فملأ أشعب كأسه وصاح بصوته الجميل :

لا تحفلن بقول اللائم اللاحى

واشرب على الورد من مشمولة الراح

كأساً إذا انحدرت فى حلق شاربها

أغناك لألاؤها عن كل مصباح

فصاح الكندى من الطرب صيحة مدوية دهت الضيفين . وأفرغ فى حلقه كأساً أخرى وهو يقول :

أسقنى حتى ترانى مائلا

وترى عمران دينى قد خرب

وسكر الكندى . وأمعن أشعب فى الغناء :

ما زلت آخذ روح الدن من لطف

وأستبيح دماً من غير مجروح

حتى انثنيت ولى روحان فى جسدى

والدن مطّرح جسم بلا روح

obeikandi.com

فطرب الكندى ولم يدر ما يصنع من شدة الطرب ، فشق قميصه وقال لأشعب :

— إفعل بنفسك مثل ما فعلت بنفسى ..

فنظر إليه أشعب دهشاً . . . فصاح الكندى :

— ويلك ، شق أيضاً أنت قميصك !

فقال أشعب جزعاً :

— أصلحك الله ! أتريد أن أشقه وليس لى غيره !

فقال الكندى :

— شقه وأنا أكسوك غداً .

فأجاب أشعب :

— فأنا إذن أشقه غداً .

فقال الكندى :

— وأنا ماذا أصنع بشقك له غداً ؟

فقال أشعب :

— وأنا ماذا أرجو من شقه الساعة ؟

obeikandl.com

ولبثا فى ذلك وقتاً يتساومان وبنان ينظر إليهما ويعجب . وأخيراً صاح فى الكندى :

— ما كل هذا ؟ إنى لم أسمع قط بإنسان يقايس ويحاور ويناظر فى الوقت الذى إنما يشق فيه القميص من غلبة الطرب ! إذا كنت قد طربت الآن حقاً . فاكسه الآن القميص !

وهزت الكندى نشوة الخمر ونخوة الوهم ، فى غفلة من غريزته النائمة . فقام يتعثر إلى قميص جديد عنده فأتى به وكساه أشعب . فلما صار القميص على أشعب ، خاف البدوات ، وعلم أن ذلك من هفوات السكر ، فتحين الفرص وأوهم الكندى أنه ذاهب لقضاء حاجة على أن يعود ، ثم مضى توا إلى منزله بالقميص فجعله من فوره « برشكانا » لامرأته .

ومضى من الليل أكثره وركب النوم الكندى وبنان ، وهما ما برحا فى انتظار عودة المطرب . فانطرح

بنان على الأرض جاءلا فراشه البساط ومرفقته يده ، ولم يكن فى المكان غير مرفقة ومخدة . فأراد الكندى إكرام ضيفه فأخذ المخدة فرمى بها إلى بنان فأباها وردها عليه . وأبى الكندى ، وأبى هو . ولبثا هكذا يتطارحان التأدب ويتقارضان المجاملة فى لسان متلعثم وجذع متمايل . إلى أن صاح صاحب البيت آخر الأمر :

— سبحان الله ! يكون أن تتوسد مرفقك وعندى فضل مخدة !

فأذعن بنان وأخذها فوضعها تحت خده . ومر بعض الليل دون أن يغرق بنان فى النوم ليبس الفراش ورداءة الموضع . وظن الكندى أن الضيف قد نام . فجاء قليلا قليلا حتى سلّ المخدة من تحت رأسه . فلما رآه بنان قد مضى بها ضحك وقال :

— قد كنت عن هذا غنياً

فارتبك الكندى وقال :

obeikandi.com

— إنما جئت لأسوى رأسك .

فقال بنان :

— إنى لم أكلمك حتى وليت بالمخدة .

فأجاب الكندى :

— كنت لهذا جئت ، فلما صارت المخدة فى يدى ، نسيت ما جئت له ، والنبيذ ما علمت والله يذهب بالحفظ أجمع !

وأراد الكندى أن يرد عليه المخدة . فأبى بنان ، فألح وألح . وعادت المناظرة والمحاورة والمطارحة من جديد . فلم يخلصهما منها إلا غلبة النوم الثقيل فى الهزيع الأخير من الليل . فانطرحا كأنهما حجران والمخدة عن كثب منهما منطرحة منفردة وحيدة .

* * *

وطلع النهار وأحس بنان ضرب الشمس فى وجهه فنهض ونظر حوله مذعوراً ، فأدرك ما كان فيه . ورأى

obeikandi.com

الكندى ممدداً يغط على مقربة منه . فأسرع إلى نعله فحمله فى يديه وانطلق إلى الطريق قبل أن يستيقظ ...

وعلا النهار ... وأقبل بعض أهل البيت ينقرون على باب الحجرة فصحا الكندى . وفرك عينيه وألقى نظرة على المكان فهم منها كل شىء ، فبحث عن الضيفين فلم يجدهما فصاح صيحة منكرة ووضع نعله فى قدميه وانطلق إلى مسكن أشعب فدق عليه الباب ، فخرج له فقال له :

— أين الساكن ؟

— لقد تركته بين يديك فأنت الذى تسأل عنه .

— وأين القميص ؟

— إنك قد وهبتنى إياه

فقال الكندى فى رفق مصطنع :

— أما علمت أن هبة السكران وشراءه وبيعه وصدقته وطلاقه لا يجوز . وبعد فإنى أكره أن لا يكون

obeikandi.com

لى حمد ولا شكر ، وأن يوجه الناس هذا منى على السكر فرد علىّ القميص حتى أهبه لك صاحياً عن طيب نفس ، فإنى لا أحب أن يذهب شيء من مالى باطلا .

فلم يتحرك أشعب لهذا القول . وعلم الكندى أن مغنيه ونديمه ومستأجره لا تنطلى عليه هذه الحجج . فأقبل عليه يقول متلطفاً :

— يا أشعب ، إن الناس يمزحون ويلعبون ولا يؤاخذون بشيء ، فرد القميص عافاك الله !

فقال أشعب مبتسما :

— إنى والله قد خفت هذا بعينه ، فلم أضع جنبى إلى الأرض حتى جيبته لامرأتى ، وقد زدت فى الكمّين وحذفت المقاديم ، فإن أردت بعد هذا كله أن تأخذه نخذه .

فقال الكندى للفور :

obeikandl.com

— نعم آخذه . لأنه يصلح لامرأتى كما يصلح لامرأتك .

ومد ذراعه . فقال أشعب :

— إنه عند الصباغ .

فقال الكندى :

— هاته .

— ليس أنا أسلمته إليه .

فعلم الكندى أنه قد وقع . وأن لا حيلة له ولا منفذ ولا أمل ولا رجاء . فقال فى زفرة حارة من كبد محروق :

— بأبى وأمى ، صدق رسول الله حيث يقول :

جمع الشر كله فى بيت وأغلق عليه ، فكان مفتاحه : السكر !

obeikandl.com

الفصل الرابع

ما وافى عصر ذلك اليوم حتى جاء أشعب رسول يحمل رقعة من القينة الجميلة تستنجزه فيها الوعد، وتخبره أنها راحلة فى الغد إلى شأن من شؤونها فى الكوفة، وتعرّض له فى ختامها بجفاء قلبه وزيف وده وتبدى له ريبتها فيما يظهره لها من الوجد. فلم يدر أشعب ما يفعل ولا كيف يجيب. فأمسك آخر الأمر بالرقعة وكتب فى ذيلها:

أنا والله أهواك
ولكن ليس لى نفقة
فأما كنت تهوينى
فقد حلّت لى الصدقة

فذهب الرسول بهذا الرد إلى الجارية، وخرج

obeikandl.com

أشعب إلى الطريق يستنشق الهواء ويفكر فى أمر المشاء ، وإذا المشيقة قد أقبلت بعد قليل . فما كاد يراها حتى وقف فى مكانه حائراً لا حراك به .

فسلمت عليه وقالت :

— لا تخش شيئاً . إنما أتيت لأودعك قبل رحيلى غداً . والله لولا اشتغالى اليوم بإعداد حوائجى ومتاعى وإخلاء دارى لوافيتك بما تشهيت علىّ من تلك الأطعمة التى يحبها قلبك وتهيم بها معدتك !

فقال لها :

— وماذا أنت صانعة فى الكوفة ؟ أذاهبة للغناء ؟

فقالت :

— نعم ، إنك فيما أظن قد رضيتنى حذاقة به ومعرفة .

فقال :

— نعم ، ولكن اختلفى أيضاً إلى مجمع مولى الزبير فإنه حسن الغناء ، فاعلقى من غنائه أصواتاً عشرة . فإنك

والله لخليقة أن تفتنى الناسك وتخرجيه من صومعته ساجداً لك .

فقالت :

— كنت أود أن أتزود منك الليلة بصوت أو صوتين ...

فسقط فى يد أشعب . وارتبك واشتدت حيرته فلم ير ما يصنع . وتفكر لحظة . ثم قال فى نفسه :

— مالى إلا منزل بنان .

ونظر إليها ثم قال :

— اتبعينى !

وسار وهو يقلب الأمر على وجوهه ، إنه لا يجهل أن وقوع طفيلى على طفيلى لا يجوز . ولكن وجود الحسناء معه فيه العذر والحجة ، وقد يرق بنان لجمالها فيتسع صدره وتنبسط يده ويوفى الضيافة حقها . واقتربا من الباب . فاستوقفها . ثم ذهب فنادى رفيقه فخرج إليه فقال همساً :

— أكمل الخير ! مني وجه صبيح ، يعدل الدنيا بما فيها ، وقد حصل على ضيقة وعسر وإملاق .

فقال بنان على الفور :

— قد شكوت أنت والله مما كدت أباديك أنا لشكواه !

غير أنه نظر إلى ناحية المرأة ورأى رشاقة قدها فقال :

— ائت بها والله المستعان !

فدخلت القينة خلف أشعب ، واستقبلها بنان بالتحية ، فسفرت فإذا هو يرى وجهاً رقيقاً كأنه كوكب ، به عينان مملوءتان سحراً وأنف كأنه قصبة در وفم كأنه جرح يقطر دماً ، وردت عليه التحية بلسان فصيح ، فخار بصره وذهب لبه وجل خطبه وتلجلج لسانه وتغللت رجلاه . ثم ثاب إليه عقله فدعاها للجلوس في صدر المكان وسألها قائلا :

obeikandi.com

— أيتها الجارية ! إنسية أنت أم جنية ، سمائية أم أرضية !

فضحكت القينة وقالت :

— بل إنسية أرضية واسمى رشا .

فسر أشعب واطمأن قلبه لما رأى من افتتان بنان .

وأنشد بصوته الرخيم وصناعته البارعة :

رشا لولا ملاحته
خلت الدنيا من الفتن
كل يوم يسترق له
حسنه عبداً بلا ثمن

وأشار بأصبعه إلى بنان ، فقال بنان :

— إى والله عبد بلا ثمن . لو سمعت بذلك سيدتى !

فابتسمت له الجارية ابتسامة طار لها لبه فقال :

— إنك والله لتختلسين الأرواح بحلاوة ابتسامتك

obeikandl.com

وتذهلين الألباب ببراعة منطقك ، فكيف لو كنت تجيدين الغناء ؟

فتبادلت القينة مع أشعب النظر . ثم انطلقت تغني :

ولى كبد مقروحة من يبيعني
بها كبداً ليست بذات قروح
أبى الناس كل الناس لا يشترونها
ومن يشترى ذا علة بصحيح

فطرب أشعب . وقام بنان من فوره فجلس بين يدى الجارية وقال :

— كل مملوك لى حر وكل امرأة لى طالق ، لو كانت الدنيا لى كلها صرراً فى كمى لقطعتها لك ، فأما إذ لم يكن لى من ذلك شىء ، فاللهم اجعل كل حسنة لى لك ، وكل سيئة عليك علىّ .

فابتسمت رشا وقالت :

obeikandi.com

— جزاك الله خيراً . فوالله ما يقوم الوالد لولده بما قمت به لنا .

فقام أشعب من فوره وقعد بين يديها وقال :

— كل مملوك لى حر وكل امرأة لى طالق إن كان وهب لك شيئاً أو حمل عنك وزراً . فهو ما له حسنة يهبها لك ، ولا عليك سيئة يحملها عنك . فلأى شيء تحمدينه وتشكرينه ؟

فضحكت وضحك بنان . . . وأمسك بنان بيدها فلثمها وقال :

— بحق عندك . . .

— ماذا ؟

— تزيدين فى السماع .

فنظرت إليه وقالت :

— وأنت ، كيف علمك بالغناء ؟

فقال مرتبكا :

obeikandl.com

— علم لا أحمده .

فقالت :

— فعلى م إذن أنفخ بغير نار ! ما منعك من معرفته ؟

فتدخل أشعب قائلا :

— منعه من معرفته أن له صوتاً أقبح من وجهى !

فنظرت القينة إلى بنان وقالت باسمة :

— لن أردك مع ذلك خائباً . أزيدك فى السماع !

وانطلقت تغنى :

أنا التى لم ير مثلى بشرُ
كلامى اللؤلؤ حين ينتشرُ
أَسحر من شئت ولست أُسحرُ
إن سمع الناس كلامى كفروا

فاستخف أشعب الطرب . ولم يدر ما يصنع .

فنهض فى الحال ونزع عمامته عن رأسه وألقى بها من النافذة . فصاح به بنان :

obeikandi.com

— ويلك ، ما فعلت بعمامتك ؟

فقال أشعب :

— تصدقت بها على الشيطان الذى أجرى هـذا الـكلام وهذا الغناء على لسانها !

فأخذ بنان للفور عمامته هو أيضاً ورمى بهـا من النافذة قائلا :

— أتسبقنى أنت إلى برّ الشيطان !

وضحكت الجارية . وضحك الجميع . وخرج أشعب إلى الطريق يأتى بعمامته . وخرج بنان خلفه يفعل مثله . فما كادا ينفردان حتى همس أشعب فى أذن صاحبه :

— ويحك ! متى الطعام والشراب ؟ هـذا والله لا يليق

فأخرج بنان من ثيابه منديلا نفيساً يضن به ويحرص عليه ، وقال :

— لا أملك والله غير هذا المنديل .

obeikandi.com

فاختطفه أشعب من يده قائلا :

— هو البغية .

فقال بنان :

— خذه لابارك الله لك فيه !

وجرى أشعب به توا إلى السوق . . .

* * *

عاد أشعب مع المساء ، وقد باع المنديل بدينار ، واشترى لحما وخبزاً ونبيذاً ، ودخل على صاحبيه بنان والجارية ، فإذا هما يتساقطان حديثاً كأنه قطع الروض الممطور ، وإذا بنان يقول لها فى شبه همس :

أترى الزمان يسرنا بتلاق
ويضم مشتاقاً إلى مشتاق

فتجيبه هى بصوت خفى وترجيع شجى :

ما للزمان يقال فيه وإنما
أنت الزمان فسرّنا بتلاق

فوقف أشعب على رأسيهما قائلا :

— ما شاء الله ! ما شاء الله !

فانتبها مذعورين ، والتفت بنان إلى رفيقه قائلا :

— ما صنعت ؟

فوضع أشعب بينهما الطعام والشراب ، وأخبره عما فعل . فقال له بنان :

— كيف يصلح طعام وشراب وجلوس مع وجه نظيف بلا نقل ولا ريحان ولا طيب ؟ إذهب فأكمل الخير !

فخرج أشعب يكمل الخير وهو يعدو عدواً حتى لا تطول له غيبة ...

* * *

وأقبل أشعب بالنقل والريحان والطيب وهو يلهث . وكان ظلام الليل قد هبط . فألفى باب الدار مفتوحا كعهده به عند خروجه ، فدخل . وإذا هو

obeikandl.com

لا يرى لصاحبيه ولا لشيء مما كان قد أتى به أثراً . فسقط في يده . وبقى متلهفاً حائراً يرجم الظنون ويجيل الفكر سائر وقته ، حتى مضى من الليل جزء ، ونفد صبره . فقال في نفسه :

— أفلا أدور في البيت لعل البحث يوقفني على أثر ؟ .

ونهض يجوس خلال الدار . وإذا هو يقف على باب سرداب . وإذا صاحباه قد هبطا فيه وأنزلا معهما جميع ما يحتاجان إليه ، فأكلا وشربا وتنعما . فلما أيقن أشعب ذلك دلى رأسه ثم نادى زميله :

— ويلك يا بنان !

فلم يجبه أحد . فرفع صوته ونادى ثلاثاً . فأجابه آخر الأمر صوت بنان من أعماق السرداب :

وأمسيت في ليلين للشعر والدجا

وشمسين من كأس ووجه حبيب

ثم سكت الصوت . وأراد أشعب أن يستجلب كلام صاحبيه ، فلم يجيباه . . .

فبات وحده ليلة يقصر عمر الدهر عن ساعة منها طولا وغماً . وطلع النهار . فخرج إليه بنان . فما كاد يراه حتى وثب إليه صائحاً :

— أهذا يصح يا بنان ؟

وجعل يؤنبه . فقال له بنان :

— يا صفيق الوجه ، منزلى ومنديلى وطعامى وشرابى ، فما شأنك فى الوسط ؟

فبهت أشعب لحظة . ورأى الجواب مفحماً فقال « متمحكا » :

— حق القيادة والفضول ، والله لا غير !

وظهرت الجارية فى تلك اللحظة . فولى بنان وجهه إليها وقال لها :

— بحياتى إلا أعطيتيه حق قيادته وفضوله .

obeikandl.com

فقالت باسمة :

— أما حق قيادته فمرك أذنه . وأما حق فضوله فصفع قفاه .

فنظر أشعب إليها فاغراً فاه . واستقبله بنان على الفور فمرك أذنه وصفعه . فالتفت أشعب قائلا :

— ما هذا ؟

فأجاب بنان :

— الحكم .

فوضع أشعب يده على مكان الصفعة ونظر إلى بنان شزرا :

— الحكم ؟ !

فقال بنان باسماً :

— نعم ، جرى الحكم عليك بما جرى لك من العذل والاستحقاق !

obeikandi.com

الفصل الخامس

مرت أيام ضاقت فيها الدنيا بأشعب حتى نسى شكل الخبز وطعم اللحم . نخرج من الجوع يهيم فى الأسواق . فلم يظفر بشىء . ولم يفتح الله عليه بمنظر أكل ولا آكلين . ولم يبلغ أذنيه حتى مجرد ذكر الطعام ، سوى قول جماعة مروا به فى الطريق يتحدثون فى أمر المسيح الدجال . فقال أحدهم :

— إن الدجال رجل يخرج فى سنة قحط معه «جرادق» أصبهانى ، وملح « درانى » و « انجذان » سرخسى !

فتملظ أشعب وصاح فيهم :

— هذا عافاكم الله رجل يستحق أن يستمع له ويطاع !

ثم سار فى طريقه على غير هدى ، حتى قادته قدماه

obeikandi.com

إلى بيت صديقه بنان ، فوقف تحت نافذته وأنشد :

أنا فى حال تعـــالى
الله ربى أى حال
ليس لى شىء إذا قيـــل
لمن ذا قلت ذا لى
ولقـــد أفلست حتى
محت الشـــمس خيالى
ولقـــــد أفلست حتى
حـــل أكلى لعيـــالى

فأطل عليه بنان من النافذة وقال له :

— ادخل !

فدخل أشعب مسرعا يقول :

— حفظك الله وأبقاك !

وجعل يتنسم رائحة قتار أو طعام فى البيت فبادره بنان بقوله :

obeikandl.com

— إنى لم أدعك من أجل ذلك ! فأنا حالى كحالك
إنما قد خطر لى خاطر لعل فيه النجاة لى ولك .

— ما هو أصلحك الله !

— ماقولك لو رحلنامعا اليوم إلى مكة فقد نجد فيها
رزقًا . وقديمًا قالوا فى السفر سبع فوائد ، ونحن والله
لا نبغى غير فائدة واحدة هى : الطعام ومعاشرة الكرام .

— وكيف لنا بالسفر ؟

— اليوم ترحل قافلة إلى مكة ، لى فيها من يحملنى
ويحملك بغير نفقة . . . فهلم بنا !

* * *

مضى أشعب وبنان من ساعتهما إلى القافلة . وكان
اليوم يوم جمعة . فبينا هما فى الطريق مرا بمسجد قد
ازدحمت فيه الناس تصلى الجمعة . فتمهل أشعب وحدثته
نفسه بالصلاة . فأخبر زميله ، فانتهره ، وأثناه عن رغبته
فأصر أشعب قائلا :

— أريد أن أستمين ببركات الصلاة على وعثاء الفلاة .

— إذهب أنت وحدك . ولئن فاتتك القافلة فليس علىّ لوم .

— إنما هى ركعة أستودع بها المدينة .

ومشى بنان فى طريقه . وعرج أشعب على المسجد ودخل . وكانت الصلاة قد بدئت . ووجد الصف تاماً . فلم يستطع أن يقوم وحده . فجذب ثوب شيخ أمامه فى الصف ليتأخر فيقوم معه ، فلما تأخر الشيخ ورأى أشعب الفرج تقدم فقام فى موضع الشيخ وترك الشيخ قائما خلفه ينظر فى قفاه ويدعو الله عليه . وكان الإمام من سوء الطالع رجلا مبطاءً ثقيل الحركات ، فجعل يقرأ فاتحة الكتاب بقراءة « حمزة » مدة وهمزة ، ثم انحنى للركوع بنوع من الخشوع لم يعهده أشعب من قبل ، ثم رفع رأسه ويده وقال : « سمع الله لمن حمده » وقام حتى ما شك

أشعب أنه قد نام ، وحل بأشعب الغم وأيقن بفوت القافلة ، وضرب الأمام بيمناه وأكب لجبينه ثم انكب لوجهه ، وأشعب يتقلى على نار الصبر ويتقلب على جمر الغيظ ، وليس له إلا السكوت والإذعان ، أو الكلام والقبر لما يعلم من خشونة القوم فى ذلك المقام لو انه قطع الصلاة قبل ختامها . فنزل على حكم الضرورة وقد قنط من الرحل والرحيل . ثم راجعه الأمل فرفع رأسه ينتهز فرصة فلم ير بين الصفوف فرجة . فعاد إلى السجود يائسا ، حتى كبر الإمام للقعود وقام إلى الركعة الثانيـة فقرأ الفاتحة وسورة القارعة قراءة استوفى بها عمر الساعة ، وكاد يستنزف أرواح القوم . فلما فرغ من ركعتيه وأقبل على التشهد ومال إلى التحية ، وقال أشعب فى نفسه « لقد سهل الله المخرج وقرب الفرج » إذا رجل قد قام من بين الناس صائحا :

— أيها الناس من كان منكم يحب النبي والصحابة فليعرنى سمعه ساعة !

فلم ير أشعب مناصاً من أن يلزم مكانه كما فعل جميع الناس .

وصاح الرجل :

— أيها النـاس ! خليق بى أن لا أقول غير الحق ولا أشهد إلا بالصدق . قد جئتكم ببشارة من نبيكم ، لـكنى لا أؤديها حتى يطهر الله هذا المسجد من كل نذل يجحد نبوءته .

فربط هذا القول أشعب بالقيود وشده بالحبال ؛ فلو تحرك بعدئذ وقام من بين الناس لـكان هو ذلك النذل الجاحد فى نظر الجميع ، ومضى الرجل يقول :

— رأيته فى المنام صلى الله عليه وسلم كالشمس تحت الغمام والبدر ليل التمام ؛ يسير والنجوم تتبعه ويسحب الذيل والملائـكة ترفعه ، ولقـد علمنى دعاءً أوصانى أن أعلمه أمته ، فكتبته على هذه الأوراق بمسك وزعفران فمن دفع لى ثمن القرطاس أعطيته .

فانهالت الدراهم على الرجل حتى حيوته . ورأى أشعب ذلك فتعجب من حذق الرجل واحتياله لرزقه . وجعل يتأمل فصاحته فى وقاحته ، وربطه الناس بهذه الحيلة البارعة ، وأخذه المال الوافر بهذه الوسيلة اليسيرة !

وخرج أشعب من المسجد وهو يفكر فى الأمر ويقول فى نفسه : « ما كان أحرانا أن نحتال للعيش بمثل هذه الحيل ؟ بدلا من انتظار الولائم والأعراس » ، وسار فى طريقه حتى بلغ مكان القافلة فعلم أنها رحلت بصاحبه . فعاد خائبًا فى غم وجوع لا يدرى أين يذهب ولا كيف يجد غداءه . وإذا هو برجل من ريف المدينة يسوق حماره وعلى وجهه أمارات السذاجة ؛ فقال فى نفسه :

— ظفرنا والله بصيد سمين .

وأقبل على الريفى صائحًا :

— حياك الله يا أبازيد ! من أين أقبلت ؟ وأين نزلت ومتى وافيت ؟ هلم إلى بيتى !

obeikandl.com

فوقف الرجل دهشاً يقول :

— لست بأبي زيد ، ولـكنى أبو عبيد .

فقال أشعب فى صوت المستدرك :

— نعم لعن الله الشيطان وأبعد النسيان ، أنسانيك والله طول العهد ، كيف حال أبيك ؟

فقال الرجل :

— لقد نبت الربيع على قبره .

فصاح أشعب :

— إنا لله وإنا إليـه راجعون ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم !

ومد يده إلى صـدره يريد أن يمزق قميصه من الجزع ، فقبض الريفى على يده قائلا :

— نشدتك الله لا تمزقه !

فأظهر أشعب التجلد والطاعة ، وأبقى على ثوبه ثم جذب يد الريفى قائلاً :

obeikandi.com

— هلم إلى بيتي كي نتغدى ، أو إلى السوق لنشترى شواء ، نعم . . . السوق أقرب وطعامه أشهى .

ومشى به إلى حانوت شواء تتصاعد رائحة دخانه شهية إلى الأنوف فتحرك أفواه البطون ؛ وقال أشعب لصاحب الحانوت :

— إفرز لأبى زيد من هذا الشواء !

ونظر إلى صوانى معروضة وقال :

— ثم زن له من تلك الحلوى ، واختر له من تلك الأطباق ، وانضد عليها أوراق الرقاق ورش عليها شيئًا من السكر وماء الورد ليأكله أبو زيد هنيئًا !

فانحنى الشوّاء بساطوره على ذلك اللحم الطرى . وقطع وقدم إلى أشعب والريفى . فجلسا وأكلا حتى استوفيا . فقال أشعب لصاحب الحلوى :

— زن لأبى زيد من اللوزينج رطلين ، فهو أجرى فى الحلوق ؛ وليكن رقيق القشر كثيف الحشو لؤلؤى

الدهن ، يذوب كالصمغ قبل المضغ ، ليأكله أبو زيد هنيئاً .

فوزن صاحب الحلوى لهما . وقعد الرجلان وشمرا حتى استوفياه . فقال أشعب للريفي :

— يا أبا زيد ، ما أحوجنا إلى ماء مشعشع بالثلج يبرد جوفنا بعد هذه الأكلة النظيفة !

فقال الريفي :

— صدقت .

فقام أشعب وهو يقول له :

— إجلس يا أبا زيد ولا تبرح حتى نأتيك بسقاء !

وخرج أشعب فائزاً بالسلامة ومعدة مملوءة .

ومضى النهار ، وعلم الريفي من إبطاء أشعب أنه لن يعود ونفد صبره من طول الانتظار ، فقام إلى حماره ، فلمحه صاحب الحانوت فتعلق بثوبه وقال له :

— أين ثمن ما أكلت ؟

obeikandl.com

فقال الريفى :

— لقد أكلته ضيفاً .

فلكمه صاحب الحانوت لكمة ، وثنى عليها بلطمة

وقال له :

— ضيفاً ؟ متى كنا دعوناك ؟ هاك خذ ...

ونزل عليه الشواء لكما ولطما وهو يقول :

— زن يا أبا الوقاحة عشرين !

وجعل الريفى يصرخ ويلعن ويصيح :

— لعن الله ذلك الشيخ المحتال ، لقد قلت له أنا

أبو عبيد ، فيقول لى أنت أبو زيد !

obeikandl.com

الفصل السادس

مرت الأيام وأشعب لا يسمع خبراً عن بنان . ولا يجد سبيلا إلى لقمة . فقد عرفته الناس فى المدينة فلم تعد تنفع الحيلة ولا الوسيلة . ولم تعد تقع عينه على خوان ولا على قوم أمام طعام . كأنما الناس من لؤمهم قد أصبحوا يأكلون فى بطون الأرض أو أجواز السماء ومشى أشعب غداة ذلك اليوم لا ينتظر شيئا ولا يفكر فى شىء . فدهم فى جانب من جوانب الطريق جماعة يتغدون وهم غرباء لم يعرفوه . فقال لهم :

— سلام عليكم معشر اللئام !

فرفعوا أبصارهم إليه قائلين :

— لا والله بل كرام !

فثنى رجله فى الحال وجلس بينهم وهو يقول :

obeikandl.com

— اللهم اجعلهم من الصادقين واجعلني من الكاذبين!

ثم مد يده في القصعة التي بين أيديهم وهو يقول:

— ماذا تأكلون؟

فأرادوا أن يوقفوا تهجمه، فقالوا في فتور:

— نأكل سُمًّا!

فحشا فمه وازدرد وهو يقول:

— الحياة بعدكم حرام!

وجعل يجول في القصعة كما يجول الفارس في الميدان.

فلما رأوه قد أغار على أكلهم، وكاد يحرمهم زادهم في غير حشمة ولا حياء. نظر بعضهم إلى بعض ثم التفتوا إليه قائلين:

— أيها الرجل! هل عرفت منا أحداً؟

فأشار أشعب بأصبعه إلى الطعام وقال:

— عرفت هذا.

فسكتوا عنه، وقد استظرفوه، وتبادلوا الحديث، فعرف منهم أشعب، أنهم من أهل مكة. وقد جاءوا في القافلة الأخيرة، وقال أحدهم أن معه رقعة من رجل اسمه بنان في مكة لرجل اسمه أشعب في المدينة، فاهتز أشعب سرورا وكشف لهم عن حقيقته. وتسلم الرقعة. وقرأها فعلم منها أن صاحبه قد استقر في أحسن حال. وقد بارحته أيام العسر والضيق. وله حرفة شريفة يدر منها المال، وهو يسأله أن يأتي إليه مع أول قافلة متهيئة للرحيل، كي يعاونه في ذلك العمل ويشاركه في ذلك الكسب الحلال...

* * *

قام أشعب من فوره فرحل مع قافلة ذاهبة إلى مكة. ولم يكن معه مال ولا أحمال، ولم يدر كيف غاب عن فطنة بنان، وقد أصبح حسن الحال كما قال، أن يرسل إليه مع الرقعة بما يقيم أوده حتى الوصول. لعله خشى

أن يأخذ أشعب المال ويكسل عن تجشم الرحيل .

ولم يعدم مثل أشعب الوسيلة ، فقد سار مع القافلة على قدميه يغنيهم ويضحكهم . وقد كان سيره أول الأمر إلى جانب ناقة عليها شيخ وشاب . فلحظ أن الشاب كثير البكاء . فاستعلم . فأخبروه أنه عاشق لابنة عمه وقد فرقت بينهما الأحداث . وأن الشاب اشترك مع ذلك الشيخ فى السفر والمؤونة وكانا على ضيقة وعسر . فجعلا لهما فى كل يوم قرصا من الخبز . وكان الشيخ متخلع الأضراس بطىء الأكل ، فكان الشاب يبطش بالقرص ثم يقعد يشتكى العشق ، ويتضور الشيخ جوعا ، وكان اسم ذلك الشاب جعفرا . فجعل أشعب يغنى فيهما قائلا :

لقد رابنى من جعفر أن جعفرا
يطيش بقرص الشيخ فى آخر الليل
فقلت له لو مسك الحب لم تبت
سمينا وأنساك الهوى شدة الأكل

obeikandl.com

فضحكت القافلة وأنست إلى أشعب . وحمله معه رجل من التجار يسافر وحده على جمل ، فلبث أشعب معه طول الطريق ، ينزلان ويقومان . والرجل فى كل يوم يحضر الطعام ويجهزه وأشعب لا يصنع شيئاً .

فقال له الرجل ذات يوم :

— قم اليوم فاطبخ .

فقال أشعب :

— لا أحسن ذلك .

فطبخ الرجل . ثم قال لأشعب :

— قم فاثرد .

فقال أشعب :

— والله كسلان .

فثرد الرجل . ثم قال لأشعب :

— قم فاغرف .

فقال أشعب :

obeikandl.com

— أخشى أن ينقلب على ثيابى .

فغرف الرجل . ثم قال لأشعب :

— قم الآن فكل .

فنهض أشعب مسرعا قائلا :

— قد والله استحييت من كثرة خلافى عليك !

وتقدم إلى الأكل فقام فيه مقام رجلين ...

* * *

وصل أشعب إلى مكة وسأل عن بنان ، فقيل له إنه كان قد استأجر دارا فى مكة يجمع فيها بين الرجال والنساء ويحمل لهم الطعام والشراب . فشكاه الناس إلى والى مكة فنفاه إلى عرفات ... فمشى أشعب من ساعته إلى عرفات ، فوجد صاحبه قد أقام فيها منزلا ورأى أمام المنزل قطيعاً من الحمير مرتبطة . فما رآه بنان داخلا عليه حتى فتح له ذراعيه وتعانقا ، وأخبره عما هو فيه من الرخاء واستواء الحال . وأنه لا ينقصه لتمام سرور من يجيئونه

obeikandi.com

غير الغناء والطرب ، وهذا لا يقوم به أحد مثل أشعب ، ولهذا أرسل إليه . فتأمل أشعب المكان وقال لصديقه :

— أهذا هو العمل الشريف والكسب الحلال !

فانتهره بنان وقال له :

— أليس هذا أشرف من أن ندعو أنفسنا إلى موائد الغير وشرابهم . إنما ندعو الآن الناس إلى شرابنا نحن وموائدنا وغنائنا . فماذا فى ذلك ؟

فقال له أشعب :

— أما نفاك والى مكة ؟ فكيف يجيئك الناس هاهنا ؟

فأجاب بنان باسماً :

— الأمر هين . فقد أرسلت إلى الناس أقول « ما يمنعكم من أن تعاودوا ما كنتم فيه ؟ فقالوا وأين بك وأنت فى عرفات » فقلت لهم : « حمار بدرهم وقد صرتم على الأثر فضلا عن النزهة » . ففعلوا . وما زالوا يفعلون ، وتلك حميرهم بالباب !

obeikandi.com

* * *

استطاب أشعب تلك الحياة الجديدة . فقد عرفت يده ثقل الدراهم ، وبطنه الشبع ، وظهره الكساء ، وأصبح الشراب من لزوم عمله . لا يفيق منه إلا إليه . وهو بعد شريك بنان فى كل ما ملك حتى فى ذلك الخادم الذى يقوم بخدمتهما .

ولم يدر أشعب أين ينفق ماله ، ولم يشأ أن يركب حماراً بالكراء يحمله فى غدواته وروحاته من مكة إلى عرفات ، ومن عرفات إلى مكة . فذهب إلى نخاس يسوق الدواب فقال له :

— أطلب ماشئت من الثمن ، واعطنى حمارا يليق بى وأليق به !

فقال النخاس وهو ينظر إلى بذخ أشعب :

— تبغى حماراً عظيم الهيئة سريع الخطوة ...

فقال أشعب :

obeikandl.com

— أبغى حماراً ليس بالصغير المحتقر ولا بالكبير المشتهر ، إذا خلا له الطريق تدفق ، وإذا كثر الزحام ترفق ، إن أقللت علفه صبر ، وإن أكثرته شكر ، وإذا ركبته هام ، وإن ركبه غيرى نام .

فنظر إليه النخاس محملقا مشدوها ثم قال له :

— يا عبد الله ، اصبر ، فإن مسخ الله قاضى مكة حمارا أصبت حاجتك إن شاء الله !

ثم أراه بعد ذلك حماراً حسن المنظر أنيق المظهر ليس به من الخصال ما طلب أشعب ، ولكن فيه من الأمارات ما يغرى ، فركبه أشعب من ساعته وأنقد الرجل الثمن . ومشى به يتبختر ، مشية لم يعرفها من قبل لا على قدميه ولا على ظهر دابة . وعاد به إلى عرفات . فلم يخالطه مع الحمير الواقفة بالباب ازدراء لشأنها وتعظيما لشأنه . فربطه وحده تحت نافذة بنان . ودخل فألفى مجلس الشراب قائما ، والرجال والنساء مختلطين . وبنان ليأسه من غيبة

أشعب في السوق ، ولما صور له السكر من الوهم والخيلاء قد حل محل أشعب في الغناء . وإذا القوم يضجون ، يريدون أن يسكتوه وهو لا يريد أن يسكت ، وما كادوا يرون أشعب داخلا حتى هللوا فرحين ، وأقبل عليه الرجال وأقبلت النساء . وارتفعت الأصوات تقول له :

— أسكت لنا صاحبك !

فأراد أن يسكته فلم يستطع ، وأقبل الناس على بنان يقولون له :

— لقد حضر أشعب ؛ فمن أحسن غناء ؟ . أنت أو أشعب ؟

فقال بنان :

— أنا شيء ، وأشعب شيء ؛ أنا أغنى بدرهم ، وأسكت بدينار ؛ أما أشعب فيغنى بدينار ويسكت بدرهم ، فسكوتى إذن أغلى من سكوت أشعب ! فوالله ما أسكت حتى تدفعوا الثمن !

فصاح الناس :

— ندفع والله !

وصاحت النساء تطلب إلى أشعب أن يغني فقال لهم :

— بثمنه كما قضى زميلي .

فقلن :

— ندفع والله !

فسكت بنان . ونهق الحمار تحت النافذة . فقال أشعب :

— هذا والله هو وحده الذى طرب لغناء بنان !

ثم شرب رطلين ورفع عقيرته يغني بصوته الحسن ويشير إلى بنان :

ومغن إن تغنى أورث الندمان همّا
أحسن الأقوام حالا فيه من كان أصما

فضحك المجلس وطرب وانهالت على أشعب آيات الحمد والإعجاب ...

obeikandl.com

* * *

مرت الأيام وشاعت فى مكة أخبار ذلك المنزل فى عرفات . وأعاد أهل مكة الشكاية إلى الوالى أن هذين القوادين لا يفتران عن هذا الفعل ، حتى فسدت أحداث مكة . فأرسل الوالى إلى بنان وأشعب . فأحضروهما وقد قاما عن العشاء وامتلأ بطناهما بألوان الطعام . وقد شرب ليلتئذ أشعب حتى جعل يقول لمن حضر :

اسـقنى صرفا حميا
تـترك الشـيخ صبيا
وتريه الغى رشـداً
وتريه الرشـد غيا

ورأى خادمهما الشرطى مقبلين ، فأسرع يخبرهما وكانا قد أعدا سردابا يخفيان فيه الناس والخمير إذا وقع خطب من هذه الخطوب . فبادرا إلى محو أثر ما كانوا فيه . وكبس الدار رجال الوالى . فلم يجدوا غير أشعب

obeikandl.com

وبنان . فقادوهما إلى مكة . فذهبا وتركا خادمهما يطلق الناس والحمير إذا لاحت ساعة الأمن والسلامة .

ودخل الرجال بأشعب على الوالى . فلما رآه قال :

— ليس هذا ببنان . من أنت أيها الرجل ؟

فغمز أشعب بعينه وقال :

— خادمك وعبدك !

ولحظ الوالى من حركاته ما جعله يقول لرجاله :

— هذا الرجل شارب .

فقال أشعب :

— لا .. أصلحك الله !

فقال الوالى :

— استنكهوه !

فأقبل الرجال على أشعب فشموا رائحة فمه ثم قالوا :

— إن نكهته لا تبين عليه .

فقال الوالى :

— فيثوه !

فصاح أشعب :

— وإن لم أقىء شرابا فمن يضمن لى عشائى ! !

ولم يكد يتم عبارته . حتى دخل بقية الرجال ببنان .

فما إن رأى الوالى بنان حتى عرفه وصاح به :

— يا عدو الله ! طردتك من مكة فصرت تفسد فى المشعر الحرام !

فقال بنان :

— يكذبون علىّ أصلح الله الأمير .

فأمر الوالى بوضعهما فى الحبس حتى الصباح . وما إن طلع النهار وجلس الوالى فى مجلسه حتى أمر بأصحاب الشكاية فأحضروا . فسألهم الدليل فقالوا :

— أصلحك الله ، الدليل على صحة ما نقول أن تأمر بجميع حمير مكة فترسل بها أمناء إلى عرفات ، فيطلقوها

فإن وقفت كعادتها على منزله دون المنازل ، فنحن غير كاذبين ولا مبطلين .

فقال الوالى :

— نعم ، إن فى هذا لدليلا وشاهداً عدلا .

وأمر من ساعته بحمير من حمر مكة التى للكراء ، فأرسلت وأطلقت ، فاذا هى تصير إلى منزل بنان لا تلوى على شىء ، كأنها به عليمة خبيرة . فلما علم الوالى بذلك قال :

— ما بعد هذا شىء . جردوه !

فأتى الرجال ببنان وجردوه عن ثيابه . فلما نظر إلى السياط ؟ التفت إلى الأمير قائلا :

— لا بد أصلحك الله من ضربى ؟

فقال :

— نعم يا عدو الله !

فقال بنان :

— والله ما فى ذلك شىء هو أشد على نفسى ، من أن

يشمت بنا أهل العراق ويضحكوا منا ، ويقولوا أهل مكة يجيزون شهادة الحمير !

فضحك الوالي . وتفكر قليلا ثم قال :

— أتحب أن أخلي سبيلك ؟ على شريطة . .

— وما هي حفظك الله وأبقاك .

— أن تغادر من ساعتك أنت وصاحبك هذه البلاد .

***

ذهب بنان وأشعب توا إلى عرفات ليحملا متاعهما ويرحلا كما أمر الوالي . فوجدا خادمهما قد سبقهما إلى النية . فوضع الدراهم والملابس وما خف وغلا في صرر . وتهيأ للهرب . فوثب عليه بنان فضربه ضربا مبرحا . فقال أشعب :

— ما تصنع ؟ لا تضرب العبد كل هذا الضرب فقد دفعت فيه كما دفعت أنت . وحقي فيه كحقك أنت !

فقال بنان :

— إني أضرب نصيبي منه .

فأشار أشعب الى الصرر :

— وهذه ؟

فقال بنان :

— كل شيء يقسم بيننا بالعدل .

فقام أشعب إلى الخادم فضربه هو أيضاً قائلا :

— وأنا أضرب حصتي فيه .

فانفلت منهما العبد وكان جلداً نشطا ذكياً ، ورفع ثيابه وسلح عليهما وقال :

— اقسما هذه على قدر الحصص !

وولى الادبار . وبقيا هما مشغولين يومهما بجمع ما استطاعا جمعه وبيع ما قدرا على بيعه ، وخرجا من ذلك النعيم آسفين ...

الفصل السابع

عاد أشعب وبنان إلى المدينه . فدخلاها دخول الظافرين . خلفهما عبدهما الهارب وقد راجماه وأرضياه يحمل لهما الصرر والخيرات . وقد تعاهدا على أن يقيما معاً فى منزل واحد لينفقا فيه هذا المال سويا . وذهب أشعب إلى داره أول الأمر . فرأى امرأته وعياله وترك لهم بعض النفقة . وعرج على الكندى يسأل عن خبره ويضحك من أطواره . ويرى كيف وقع العودة عليه . فسأل عنه فقيل له إنه خرج فمبر من بكرة الصباح ليقتضى رجلا خمسة دراهم فضلت ديناً عليه . وإن هذا ما يشغله منذ أيام طويلة . فهو يخرج من أجل هذا الدين من أول النهار فلا يرجع إلا مع آخره لبعد الشقة وكثرة المماطلة . فجلس أشعب ينتظره حتى رجع . فما وقع نظر

الكندى على أشعب ببابه حتى امتقع لونه . فابتدره أشعب صائحاً :

— لا تخش شيئاً ، بأبى أنت وأمى !

وقص عليه أخبار الرحلة ، وأراه ما هو فيه من النعمة فأشرق وجه الكندى . وجعل ينظر إلى ثوب أشعب النظيف معجباً أول الأمر . غير أنه عاد فهز رأسه وقال متفاخراً :

— لا والله . أين هذا من ذلك القميص !

فلم يفطن أشعب وقال :

— أى قميص ؟!

وفجأة تذكر الليلة التى سكر فيها الكندى . فضحك حتى دمعت عيناه . فأراد أن يسره ويهون عليه تلك المصيبة التى ما زال يذكرها ، فدعاه إلى طعام وشراب فى ذلك المنزل الذى جعله هو وبنان لمنادمتهما وتنعمهما . ومضى أشعب فأخبر صديقه وشريكه ليعد

obeikandl.com

وليمة فى ذلك المساء . ورأى أشعب أن شعره قد طال وبدنه قد اتسخ من طول السفر . فقال للخادم :

— اختر لنا حماماً نظيف البقعة طيب الهواء معتدل الماء ، وحلاقاً خفيف اليد حديد الموسى قليل الفضول .

فقاده الغلام إلى ما أراد . ودخل أشعب الحمام ، فلم يرعه إلا رجل قد دخل على أثره وعمد إلى قطعة طين فلطخ بها جبينه ووضعها على رأسه ثم خرج . ودخل آخر فجعل يدلكه دلكا يكد العظام ويغمزه غمزاً يهد الأوصال . ثم عمد إلى رأسه يغسله ويرسل عليه الماء . وإذا الأول قد عاد فرأى الثانى منهمكا فى العمل فلكمه لكمة كادت تطير أسنانه وقال له :

— يا لكع ، مالك ولهذا الرأس وهو لى .

فقام إليه المضروب وعطف عليه بلطمة كادت تضيع صوابه ، وقال له :

— بل هذا الرأس حق وملكى وفى يدى .

وتلاكما حتى تعبا ، وتجاذبا الأثواب وسارا يتحاكمان
إلى صاحب الحمام . فقال له الأول :

— أنا صاحب هـذا الرأس . لأنى لطخت جبينه
ووضعت عليه الطين .

وقال الثانى :

— بل أنا مالكه ، لأنى غسلته ودلكت صاحبه .

فقال الحمامى :

— ائتونى بالزبون أسأله لأيكما هذا الرأس ؟

فذهب الرجلان إلى أشعب وقالا له :

— لنا عندك شهادة ، فقم معنا !

وكان أشعب ما زال موضوعاً فى مكانه وضما لم
يفهم مما حدث أمامه شيئًا ولا أدرك لهذا الشجار معنى
فنهض وسار معهما إلى صاحب الحمام . فابتدره الحمامى
قائلا :

— يا رجل لا تقل غير الصدق ولا تشهد بغير

الحق ، قل لى : هذا الرأس لأيهما ؟

فوقف أشعب دهشا مشدوهًا لحظة ثم قال :

— يا عافاك الله ، هذا رأسى أنا ؛ قد صحبنى طول الطريق من المدينة إلى مكة ومن مكة إلى عرفات وما شككت أنه لى .

فقال له الحمامى منتهراً :

— أسكت يا فضولى !

ثم مال إلى أحد الخصمين وقال له :

— يا هذا . إلى متى هذه المنافسة بينكما على رأس صغير الشأن قليل الخطر !

ثم عرج على الخصم الآخر وقال مهونًا عليه :

— وأنت يا هذا ! هب أنك لم تر رأس هذا التيس !

فقام أشعب من ذلك المكان خجلا . وارتدى

ثيابه على عجل وانسل من الحمام ، فوجد خادمه المنتظر بالباب يقول له :

— نعيماً إن شاء الله !

فهوى فى الحال بكفه على قفا الخادم :

— أنعم الله عليك بهذا !

* * *

أسرع أشعب فدخل المنزل وأوصى الغلام أن يأتيه بحلاق ، وأن يحذر هذه المرة ؛ فلا يحضره فضولياً ولا ثرثاراً . فحسبه ما ذهب من الوقت فى غير شىء ، سوى ما رآه من شجار وما لحقه من سباب !

فانصرف وعاد برجل ، دخل فسلم ، وما هو إلا أن دارت يده على وجه أشعب حتى قال له :

— جعلت فداك ، هذا وجه لا أعرفه ، فمن أنت ؟

فقال أشعب :

— اسمى أشعب

obeikandi.com

فقال الحلاق :

— بأبى أنت وأمى ، هذا اسم لا يجهله أحد فى المدينة ! ومن أين قدمت ؟ فإنى أرى أثر السفر عليك ؟

فقال أشعب :

— من مكة .

فقال الحلاق :

— حياك الله ، من أرض النعمة والرفاهة ، وبلد رسول الله الكريم . لقد حضرت فى شهر رمضان جامعها وقد أشعلت فيه المصابيح وأقيمت التراويح ...

وجعل يقص قصة طويلة لا آخر لها ولا معنى وأشعب يصبر نفسه . وفرغ الحلاق من القصة فعاد يسأل :

— وأى شىء أقدمك ؟ أصلحك الله !

فأجاب أشعب :

— أقدمنى الزمن وتقلباته ، ولكن إذا فرغت سأخبرك بالأمور على وجهها .

obeikandi.com

فقال :

— وتعرفنى بالمنازل والسكك التى جئت عليها .

فقال أشعب :

— نعم .

وكان الخادم واقفاً على مقربة منهما . فنظر إليه أشعب نظرة قاسية . فدنا منه الغلام وهمس فى أذنه معتذرا :

— لن أجد حلاقا يسكت حتى يفرغ !

ومالت الشمس إلى الغروب . ولم يفرغ الحلاق من الكلام ، ولم يفرغ مما جاء له ، وأخيراً قال :

— لو كانت الاستطاعة قبل الفعل لكنت قد حلقت رأسك . فهل ترى أن نبتدئ ؟

فأسرع أشعب قائلا :

— وماذا كنت تصنع فيما مضى من الوقت ؟

ونهض فوثب بعيدا . وما إن استوثق أنه أفلت من يد الحلاق ومواسيه ، حتى صاح فى الخادم :

obeikandi.com

— علق هذا الحلاق من العقبين .

فهجم عليه الخادم بسواعده القوية وعلقه كما أمر .

فقال له أشعب :

— جعلت فداك ، سألتنى عن المنازل والسكك التى قدمت عليها ، وأنا مشغول فى ذلك الوقت ، وظننت أنك مشغول بعملك ، فأنا أقصها عليك الآن ، فاستمع : خرجنا من مكة فى المساء فنزلنا بئراذات نخيل فى ظهيرة الغد . ياغلام ، أوجع !

فضربه العبد عشرة أسواط . فقال أشعب :

— وركبنا عند المساء فنزلنا عين ماء حولها عشب عند طلوع النهار . ياغلام ، أوجع !

فضربه الخادم عشرة أخرى . وقال أشعب :

— ثم ركبنا ضحى اليوم وسرنا إلى نجع وقد أشرفنا على الأصيل . ياغلام ، أوجع !

فضربه العبد عشرة ثالثة . وقال أشعب :

obeikandi.com

— وبعدئذ ركبنا وسرنا حتى وجدنا ...

فصاح الحلاق مقاطعا :

— يا سيدى ، سألتك بالله إلى أين تريد أن تبلغ ؟.

فقال أشعب :

— إلى المدينة .

فصاح الحلاق :

— لست تبلغها حتى تقتلنى

فقال أشعب :

— أتركك على أن لا تعود ؟

فصاح الحلاق :

— والله لا أعود أبداً .

فتركه . وكان المساء قد أقبل . وحضر بنان والكندى . وأبصرا الخادم يحل وثاق الحلاق . فسألا فأخبرهما أشعب الخبر . فقال الكندى :

— وددت أنك بلغت به إلى أن تأتى على نفسه !

obeikandi.com

* * *

جلس الجميع يتحادثون ساعة قبل أن يوضع بينهم الخوان ويقدم الشراب . وحلف أشعب على الحلاق أن لا يبرح حتى يحضر معهم العشاء . فقد كفاه من التأديب ما أكله من يد العبد . وأخذ الكندى يجول بنظره فى أنحاء المكان ويعجب بالرياش . ولمحه بنان فقال له باسماً :

— أراك شديد العجب !

فقال الكندى :

— إى والله نعم .

ثم أردف سائلا :

— ومتى كان الرحيل ؟ قبل أن أهدى أشعب القميص بكم يوم ؟

فلم يفطن بنان وقال :

— أى قميص ؟

obeikandi.com

فابتسم أشعب وتذكر عندئذ أمراً كان يود أن يسأل الكندى فيه . فأقبل عليه يقول له :

— بالله إلا أخبرتنا : إنا نراك لأول مرة تصنع شيئاً الفساد فيه ظاهر والفائدة لك فيه غير مرجوة . أخبرنا عن مضيك كل يوم إلى رجل فى آخر السوق لتقتضى منه خمسة دراهم دينا عليه . أهو حزم منك ؟ لا . إنما الحزم أن يتشدد الإنسان فى غير تضييع .

فالتفت الكندى إليه قائلا :

— وما هو وجه التضييع ؟

فقال أشعب :

— وجوه التضييع كثيرة . فواحدة : إنا لا نأمن عليك انتقاض بدنك وقد خلا ما خلا من سنك ، وأن تعتل ، فتدع التقاضى الكثير بسبب هذا القليل أو تتشاغل بالبعيد عن القريب ، وثانية : إنك أن تجهد هذا الجهد فلا بد لك من أن تزداد فى العشاء إن كنت ممن

obeikandi.com

يتمشى أو تتمشى إن كنت ممن لا يتمشى . وهـذا إذا اجتمع كان أكثر من خمسة دراهم . وبعد فإنك تحتاج أن تشق وسط السوق وعليك ثيابك ، والحمولة تستقبلك فمن ههنا نترة ومن ههنا جذبة ، فإذا الثوب قد أودى ، ومن ذلك أن نعلك تنقب وترق ، وساق سراويلك تتسخ وتبلى ، ولعلك أن تعثر في نعلك فتقدها قداً ، ولعلك تهرتها هرتا من كثرة الذهاب والإياب في سبيل هذا الدين الزهيد . منـذ متى وأنت تذهب للمطالبة والاقتضاء ؟

فقال الـكندى :

— منـذ يومين من تاريخ الليلة التي أهديت فيها لك القميص .

فأخفى أشعب ابتسامه ومضى يقول :

— مضى إذن وقت طويل وأنت على هذه المشقة تتكبد كل ما ذكرنا لك من الخسائر ، ولا تجنى إذا

جنيت إلا خمسة دراهم . ولما كنا نثق دائماً بحكمتك فى كل تصرفاتك . فقد أعيتنا والله هذه المشكلة . وأحببنا أن نسألك فيها .

فتنحنح الكندى وقال :

— أما ما ذكرتم من انتقاض البدن ، فإن الذى أخاف على بدنى منه هو الدعة وقلة الحركة ، وهل رأيتم أصح أبدانا من الحمالين والطوافين . ولربما أقمت فى المنزل بعض الأمر فأكثر الصعود والنزول خوفا من قلة الحركة ، وأما التشاغل بالبعيد عن القريب فأنا لا أعرض للبعيد حتى أفرغ من القريب ، وأما ما ذكرتم من الزيادة فى الطعام فقد أيقنت نفسى واطمأن قلبي على أنه ليس لنفسى عندى إلا مالها ، وإنها إن حاسبتنى أيام التعب حاسبتها أيام الراحة . وأما ما ذكرتم من تلقى الحمولة ومن مزاحمة أهل السوق ومن النتر والجذب فأنا أقطع عرض السوق من قبل أن يقوم أهل السوق لصلاتهم ، ثم يكون

رجوعي على ظهر السوق ، وأما ما ذكرتم من شأن النعل والسراويل فاني من لدن خروجي من منزلي إلى أن اقترب من باب صاحبي فانما نعلي في يدي وسراويلي في كمي ، فإذا صرت إليه لبستهما ، فإذا خرجت من عنده خلعتهما ، فهما في ذلك اليوم أودع أبدانا وأحسن حالا . بقي الآن لكم مما ذكرتم شيء ؟؟

فقال أشعب والجميع متعجبين :

— لا .

فأردف الكندي باسماً .

— ههنا واحدة تفي بجميع ما ذكرتم .

فقالوا جميعاً في لهفة :

— ما هي ؟

فقال الكندي :

— إذا علم المدين القريب ومن لي عليه ألوف الدنانير شدة مطالبتي للمدين البعيد ومن ليس لي عليه

إلا الدراهم ، أتى بحق كاملا ولم يطمع نفسه فى مالى . فهذا تدبير يجمع لى إلى رجوع مالى طول راحة بدنى وليس من الحكمة أن أدع شيئا من دين يطمع فى فضلة ما يبقى على الغرماء .

وسكت . فقالوا بأجمعهم فى صيحة إعجاب :

— لا والله لا سألناك عن مشكلة أبداً .

وجاء وقت الطعام . ووضع الغلام الخوان ، وقدم « مضيرة » من لحم الجدى واللبن الحامض والتوابل والأبزار ، تثنى على كرم أشعب وبنان وتشهد لهما بالسعة والرخاء ، فى قصعة عظيمة يزل عنها الطرف بهاء ورواء ، فما أخذت من المائدة مكانها ، حتى قام الحلاق على قدميه ساخطا لاعنا ، يسب آكلها وطابخها ، فظنه الحاضرون يمزح ، فإذا هو جاد فى الكلام وإذا هو يتنحى بعيدا تنحى السليم عن الأجرب ، فرابهم أمرها وخافوا أن يمدوا إليها يداً ، فرفعوها فارتفعت معها قلوبهم

وسافرت خلفها عيونهم . وتحلب لها فم الكندى وتلمظت لها شفتاه ، ولكنه أذعن على مضض ، وأقبل كما أقبل الآخرون على الحلاق يسألونه عن أمرها فتنهد وقال :

— قصتى معها أطول من مصيبتى فيها !

وسكت ، فصاحوا به :

— تكلم !

فتردد ثم قال :

— أخاف لو حدثتكم بها أن لا آمن من غضبكم وإضاعة وقتكم .

فزاد بذلك رغبتهم فى الاستطلاع فقالوا له جميعاً :

— تحدث .

فجلس وأطرق ساعة ثم رفع رأسه وقال :

— منذ سنوات ثلاث دعانى حلاق من إخوانى الحلاقين ، ترك الحرفة بعد أن أثرى وجمع الأموال ، إلى أكلة « مضيرة » ولزمنى ملازمة الظل إلى أن تركت

obeikandl.com

حانوتى وزبائنى وأجبته إليها ، وقمنا . فجعل طول الطريق يثنى على زوجته ويفديها بمهجته ويصف حذقها فى صناعة المضيرة وتأنقها فى طبخها ، ويقول :

— يا صاحبى لو رأيتها والخرقة فى وسطها وهى تدور فى المطبخ بين القدور تنفث بفمها النار وتدق بيديها الأبزار ، ولو رأيت الدخان وقد غبر فى ذلك الوجه الجميل ؛ لرأيت منظراً تحار فيه العيون . وأنا أعشقها لأنها تعشقنى ، ومن سعادة المرء أن يرزق المساعدة من حليلته ، ولا سيما إذا كانت من طينته ، وهى ابنة عمى لحًّا . مدينتها مدينتى وأرومتها أرومتى . لكنها أوسع منى صدراً ، وأحسن خلقاً .

ومضى يحدثنى بصفات زوجته حتى انتهينا إلى الجهة التى يقيم فيها . فقال :

— يا صاحبى ترى هذه الجهة هى أشرف موقع بالمدينة ، يتنافس الأخيار فى نزولها ولا يقطنها غير

كل عظيم وإنما المرء بالجار . وداری فی وسطها كالنقطة فی الدائرة ، انظر إلى داری وقل لی كم تقدر ثمنها . قله تخمينا .

قلت :

— الكثير

فقال :

— يا سبحان الله ! تقول الكثير فقط ؟

وتنهد ثم قال :

— سبحان من يعلم الأشياء !

وانتهينا إلى باب داره فقال :

— كم تقدر يا صاحبي أنفقت على هذا الباب ؟ أنفقت والله عليه فوق الطاقة ، كيف ترى صنعه وشكله أرأيت بالله نظيره ؟ انظر إلى دقائق الصنعة فيه ، وتأمل حسن تعريجه فكأنما خط بالبركار ، ثم هذه الحلقة فيه لقد اشتريتها فی سوق الطرائف من عمران الطرائفی

obeikandl.com

بثلاثة دنانير . وكم فيها من النحاس ياصاحبي ! فيها ستة أرطال ! بالله دورها ثم انقرها وأبصرها .

وقرعنا الباب ودخلنا الدهليز . فقال :

— عمرك الله يادار ولا خربك ياجدار . تأمل بالله المعارج ، وتبين دواخلها وخوارجها ، وسلنى كيف حصلت عليها ، وكم من حيلة احتلت لها . فلقد كان لى جار يكنى أبا سليمان ، يسكن هذه الدار ، وله من المال ما لا يسعه الخزن . فمات رحمه الله وخلف خلفاً أتلف المال بين الخمر والزمر ، وخشيت أن تذهب الدار فيما ذهب . ويفوتنى شراؤها فأتقطع عليها حسرات إلى يوم الممات ، فاحتلت حتى أقرضت صاحب الدار مالاً احتاج إليه ، وتغافلت عن اقتضائه حتى كادت حاشية حاله ترق فسألته أن يجعل داره رهينة لدىّ ، ففعل . ثم صبرت عليه إلى أن أفلس وآلت إلىّ الدار بثمن بخس . وأنا بحمد الله محظوظ . وحسبك يا صاحبى أنى كنت منذ ليال نائما

obeikandi.com

فى البيت مع من فيه إذ قرع علينا الباب . فقلت من الطارق . فاذا امرأة معها عقد لؤلؤ تعرضه للبيع فأخذته منها إخذة خلس واشتريته بثمن زهيد وسيكون له ربح وافر بعون الله تعالى . وإنما حدثتك بهذا الحديث لتعلم سعادة حظى . والسعادة تنبط الماء من الحجارة . الله أكبر ، لا ينبئك أصدق من نفسك . ثم إنى اشتريت هذا الحصير فى المنادات وقد أخرج من دور آل ثراء ، وكنت أطلب مثله منذ زمن طويل فلا أجد . تأمل بالله دقته ولينه وصنعته ولونه . وإن كنت سمعت بأبى عمران الحصيرى ، فهو عمله وله ابن يخلفه الآن فى حانوته ، لا يوجد أعلاق الحصر إلا عنده ، فبحياتى لا اشتريت الحصر إلا من دكانه . فالمؤمن ناصح لإخوانه . ونعود إلى حديث المضيرة فقد حان وقت الظهر . يا غلام الطست والماء

فقلت :

— الله أكبر ربما قرب الفرج

وتقدم خادمه . فقال :

— ترى هذا الغلام . إنه رومى الأصل ، عراق النشء ، تقدم ياغلام ، واحسر عن رأسك ، وانض عن ذراعك وأقبل وأدبر .

ففعل الخادم ذلك . وقال صاحب الدار :

— بالله سلنى من اشتراه ؟ اشتراه والله أبو ممن من النخاس . يا غلام ضع الطست وهات الأبريق .

فوضعه الغلام وأخذه المضيف وقلبه بين يديه وأدار فيه النظر ثم نقره وقال :

— انظر إلى هذا النحاس الأصفر كأنه قطعة من الذهب ، نحاس الشام وصنعة العراق . تأمل حسنه وسلنى متى اشتريته ؟ اشتريته والله عام المجاعة . يا غلام الابريق !

فقدمه . وأخذه رب البيت فقلبه بين يديه وقال :

obeikandl.com

— أنبوبه منه ، لا يصلح هذا الأبريق إلا لهذا الطست . ياغلام ، أرسل الماء ، فقد حان وقت الطعام ! بالله ترى هذا الماء ما أصفاه ، أزرق كعين السنور . وكأنه لسان الشمعة فى صفاء الدمعة . وهذا المنديل سلنى عن قصته . فهو نسج جرجان ، وقع إلى فاشتريته . فاتخذت امرأتى بعضه سراويلا واتخذت بعضه منديلا . دخل فى سراويلها عشرون ذراعا . وانتزعت انتزاعا من يدها هذا القدر وأسلمته إلى المطرز حتى صنعه كما تراه وطرزه . فادخرته للظراف من الأضياف أمثالك . ياغلام ، الخوان والقصاع والطعام ، فقد كثر الكلام .

فأتى العبد بالخوان وقلبه صاحب البيت ونقره وعجمه بأسنانه وقال :

— عمر الله بغداد فما أجود متاعها . تأمل بالله هذا الخوان وانظر إلى خفة وزنه وصلابة عوده وحسن شكله

فقلت له :

obeikandi.com

— هذا الشكل فى الأكل .

فقال :

— الآن ، عجل ياغلام بالأكل ، لكن الخوان قوائمه منه . . .

فقنطت وقلت فى نفسى :

— قد بقى الخبز وآلاته وصفاته والحنطة من أين اشتراها وكيف اكترى لها حمالا وفى أى رحى طحن وكيف عجن وخبز ، وبقى الحطب ومتى جلب وكيف صفف وجفف . وبقى الخباز ووصفه والدقيق والخمير وشرحه ، وبقى البقل وكيف قطف ونظف ، وبقيت المضيرة كيف اشترى لحمها ووفى شحمها ونصب قدرها ودقت أبزارها حتى أجيد طبخها وعقد مرقها ، وهذا خطب يطم . فقمت .

فقال :

— أين تريد يا صاحبي ؟

obeikandl.com

فقلت :

— حاجة أقضيها .

فقال :

— تريد كنيفاً أحسن من مصيف الأمير ويزرى بمقصورة الوزير ، قد سطح سقفه وفرشت أرضه بالمرمر ، يمشى على أرضه الذباب فيزلق ، وعليه باب من ساج وعاج ، مزدوجين أجمل ازدواج ، يتمنى الضيف ان يأكل فيه .

فقلت له :

— كل أنت من هذا الجراب ، لم يكن الكنيف فى الحسبان . وخرجت من الدار وجعلت أعدو ، وهو يتبعنى ويصيح بى :

— يا أبا الفرج ... المضيرة ! .

وظن الصبيان فى الطريق أن المضيرة لقب لى ، فصاحوا صياحه فضجرت ورميت أحدهم بحجر ،

فأصاب الحجر عمامة رجـل عابر وغاص فى هامته .
فأخـذت من صفع الناس بما طاب وخبث . وضُربت
والله حتى نسيت اسمى . ثم حشرت إلى الحبس فأقمت
عامين فى ذلك النحس . وخرجت فنذرت أن
لا آكل مضيرة طول حياتى . فهل أنا فى ذا يا أسيادى
وإخوانى ظالم ؟ ! » .

. . .

وسكت الحلاق . ونظر إلى الجالسين يمنة ويسرة
فوجدهم ينفخون ويتلمظون لا من الجوع . بل من
الغيظ . ولم يجدوا كلاما يقولونه له . . .

ولم ير أشعب جواباً يجيب به غير الإشارة إلى
العبد والصياح فيه قائلا :

— علّق هذا الحلاق من العقبين ، إلى أن نفرغ
من العشاء !

obeikandl.com

وأرجعوا « المضيرة » ، فعادت إليهم باردة منكمشة كالعجوز الحيزبون . فأكلوها وقد ذهب رواؤها ومضت لذتها فجعل الكندى يضحك ويقول لأشعب :

— ألم أقل لك وددت أنك بلغت بهذا الجلاق إلى أن تأتى على نفسه !

obeikandl.com

الفصل الثامن

لبث أشعب وبنان على هذه الحال أياماً ينفقان مما عندهما على طيب الطعام وجيد الشراب ، إلى أن أوشك ما جمعاه أن ينضب ، ولاح شبح الفاقة والجوع يقترب ، فحدثتهما النفس أن يصنعا ههنا ما صنعاه فى عرفات . ولكن على نسق آخر ، خوفا من سوء العاقبة . فبعث أشعب إلى الجارية « رشا » فحضرت . وأعد هو وبنان منزلا فى زقاق العطارين يشرف على السوق . وأوصيا الجارية أن تخطر بقدها المائس أمام المسجد إذا اجتمع الناس لصلاة العصر . فمضت وعلى وجهها خمار أسود ، تزهر من تحته عيناها كأنهما النجوم . فما كادت تسير خطوات حتى سمعت خلفها من يهمس فى أذنها :

قل للمليحة فى الخمار الأسود

ماذا فعلت بزاهد متعبد

قد كان شمر للصلاة ثيابه

حتى خطرت له بباب المسجد

ردي عليه صلاته وصيامه

لا تقتليه بحق دين محمد

فالتفتت ، فرأت رجلا ليس من أهل البلد نظيف الهيئة ، وقور الطلعة يحد إليها النظر . فقالت له :

— اتبعني .

فقال لها :

— إن شريطتي الحلال .

فقالت له :

— قبحك الله ، ومن يريدك على حرام

فخجل الرجل . وغلبته نفسه على رأيه ، فتبعها ومشيا حتى دخلا الزقاق وبلغا المنزل . وصعدت الجارية درجة وقالت للرجل :

— إصعد .

obeikandi.com

فصعد . فقالت له :

— إن لى وجهاً أحسن من العافية ، مع صوت كصوت « ابن سريج » وترنم « معبد » وتيه « ابن عائشة » ، أجمع لك هذا كله فى بدن واحد بأشقر سليم .

فقال لها :

— وما أشقر سليم ؟

فقالت :

— بدينار واحد ، يومك وليلتك . فإذا أقمت جعلت الدينار صداقا وتزويجاً صحيحاً .

فقال الرجل :

— لك ذلك ، إذا جمع لى ما ذكرت

فأجلسته فى صدر الدار وخلعت خمارها . ورأى الرجل جمالها . فذهب عقله . وقامت الجارية . فقال لها :

— إلى أين جعلت فداك ؟

— ألبس وأتهيأ . .

فصاح الرجل :

— بالله لا تمسى غمراً ولا طيباً ، فحسبك بدلالك وعطرك ...

فابتسمت له ابتسامة أجهزت عليه . وذهبت .

وجاء الغلام ، فحيا الرجل أجمل تحية ، وأسرّ له فى أذنه :

— أأخبرتك شريطتها ؟

فقال الرجل :

— لا والله . ما شريطتها ؟

فقال الخادم :

— لعلها نسيت تخبرك . هى والله أفتك من « عمرو ابن معديكرب » وأشجع من « ربيعة بن مكدم » ، ولست بواصل إليها حتى تسكر ويغلب على عقلها ، فإذا بلغت ذلك الحال ففيها مطمع

فقال الرجل :

— ما أهون ذلك وأسهله !

obeikandi.com

فأردف الخادم :

— ثم شيء آخر .

— ما هو ؟

— إعلم أنك لن تصل إليها حتى تتجرد لها وتراك مجرداً مقبلا مدبرا .

فقال الرجل :

— وهذا أيضاً أفعله .

وتركه الغلام ومضى . وأقبلت الجارية تموج ظرفا وتميس لطفاً ، فقالت :

— هلم دينارك !

فأخرج الرجل ديناراً نبذه إليها . فصفقت . فأجابها العبد . فقالت له :

— قل لأبي الحسن وأبي الحسين هلمّا الساعة !

ومضى قليل . فإذا شيخان خاضبان نبيلان ، هما أشعب وبنان ، قد أقبلا فصعدا . فقصت الجارية عليهما

obeikandl.com

القصة . وغمزت لهما بعينها غمزة خفيفة لم يلحظها الرجل .
فقام أحدهما فخطب وأجاب الآخر . ودعيا الرجل فأقر
بالتزويج وأقرت الجارية . ودعوا الشاهدان بالبركة ، ثم
نهضا وخرجا . واستحيا الرجل أن يحمل المرأة شيئاً من
المؤونة فأخرج ديناراً آخر دفعه إليها وقال :

— إجعلي هذا لطيبك .

فقالت له :

— يا أخي ، لست ممن يمس طيباً لرجل ، إنما أتطيب
لنفسي إذا خلوت .

فقال لها :

— فاجعليه إذن لعشائنا الليلة .

قالت :

— أما هذا فنعم .

ونهضت فأمرت بإصلاح ما يحتاج إليه . ثم عادت
وأقبل المساء ، فدعت بالخوان والنبيذ . فتعشيا وشربا .

obeikandl.com

وأمسكت بالعود واندفعت تغني :

راحوا يصيدون الظباء وإنى
لأرى تصيدها علىّ حراما
أعزز علىّ بأن أروّع شبهها
أو أن تذوق على يدىّ حماما

فكاد الرجل يجن سروراً وطرباً . وقال لها :

— جعلت فداك ، مَن يغنى هذا ؟

قالت :

— اشترك فيه جماعة ، هو لمعبد ، وتغنى به ابن سريج وابن عائشة .

وجعل الرجل يحتال لتدنو منه فتأبى عليه . ثم غنت بصوت لم يفهمه للشقاء الذى كتب عليه :

كأنى بالمجرد قد علتـــــه
نعال القوم أو خشب السوارى

فقال لها :

obeikandi.com

— جعلت فداك ، ما أفهم هذا البيت ، ولا أحسبه مما يتغنى به !

قالت :

— أنا أول من تغنى به .

فقال :

— إنما هو بيت عابر لا ثانى له ؟

قالت :

— معه آخر ليس هذا وقته . هو آخر ما أتغنى به .

فسكت الرجل . وجعل لا ينازعها فى شىء إجلالا لها ، إلى أن أذنت العشاء ، فوضعت عودها . فقام فصلى العشاء ، وما يدرى كم صلى عجلة وشوقاً . وفرغ من صلاته فأقبل عليها يقول :

— تأذنين جعلت فداك فى الدنو منك ؟

قالت :

— تجرد !

obeikandi.com

وأشارت إلى ثيابها كأنها تريد أن تتجرد ، فكاد الرجل يشق ثيابه عجلة للخروج منها . فتجرد ، وقام بين يديها . فقالت له :

— إمض إلى زاوية البيت ، وأقبل وأدبر ، حتى أراك مقبلا ومدبراً !

وإذا في زاوية البيت حصير في الغرفة على الطريق فخطر الرجل عليه . وإذا تحته خرق إلى السوق . وإذا الرجل يجد نفسه في السوق مجرداً عارياً كما ولدته أمه وإذا الشيخان الشاهدان «أشعب وبنان» قد أعدَّا نعالهما على قفاه ، واستعانا بأهل السوق . فما أبقوا فيه عظما صحيحاً . وبينما الرجل يُضرب بنعال مخصوفة وأيد مشدودة ، اذا صوت تغنى به الجارية من فوق البيت :

ولو علم المجرد ما أردنا

لحاربنا المجرد بالصحارى

فقال الرجل في نفسه :

— هذا والله وقت هذا البيت !

* * *

أمعن أشعب وبنان فى هـذا السبيل بمثل هذه الأساليب ، حتى ضجت الناس وعمت الشكوى . وبلغ الأمر والى المدينة وكان شديد الورع ، صارم الخلق ، عبوس الوجه . فأرسل فى طلب هذين المفسدين ، وأمر بهما للفور فجردا من ثيابهما وضربا ثلاثين سوطاً . وأمر بأموالهما الحرام فضمت إلى بيت المال .

وتحمل أشعب وبنان الضرب . ولكنهما لم يتحملا كارثة ذهاب المال . فصاح أشعب يستأذن على الوالى فأذن له . فبكى بين يديه وتباكى وقال :

— أصلحك الله ! أنجرد من ثيابنا ومن مالنا فى يوم واحد !

فقال له الوالى :

— يا عدو الله ! لقد كنتما تجردان الناس من هذا وذاك فى ليلة واحدة .

ورأى أشعب أن لا حيلة له مع هذا الوالى إلا أن يضحكه ، فلعله إن ضحك عفا . فجعل يقص عليه طريف النوادر والوالى فى إطراقه وتقطيبه وعبوسه لا يعبر وجهه خيال ابتسامة . وسكت أشعب قانطاً .

فرفع الوالى رأسه وقال له :

— لو انك حفظت الحديث حفظك هذه النوادر لكان أولى بك .

فقال أشعب :

— قد فعلت .

فقال له الوالى :

— أسمعنى ما حفظت من الحديث ؟

فتنحنح أشعب ثم قال :

— حدثنى نافع ، عن ابن عمر ، عن النبي صلى الله عليه

وسلم قال : من كان فيه خصلتان كتب عند الله خالصاً مخلصا .

فقال الوالى :

— هذا حديث حسن ، فما هاتان الخصلتان ؟

فحار أشعب وتفكر لحظة ثم قال :

— نسى نافع واحدة .

فقال الوالى :

— والأخرى ؟

فقال أشعب :

— الأخرى ... نسيتها أنا .

فلم يجب الوالى . ولم يزد على أن أمر بأشعب فضرب ثلاثين أخرى ...

obeikandi.com

الفصل التاسع

جعل أشعب وبنان يطوفان فى الأسواق متجردين من مالهما وقد أعياهما الجوع وضاقت بهما الحياة . ولم يبق لهما مما سلف ، غير ذكرى تعاود أشعب فى كل ليلة ، فيرفع عقيرته صائحا .

شربنا كؤوس السعد حتى كأننا
ملوك لهم فى كل ناحيـــة وفر
فلما اعتلت شمس النهـار رأيتنا
تخـــلى الغنى عنا وعاودنا الفقر

وأتعبهما كثرة المشى فقال بنان :

— مالنا نمشى فى غير حاجة ؟

فقال أشعب :

— صدقت . والله لقد أنسانا الفقر وصايا أساتذة

obeikandi.com

التطفيل رحمهم الله. لقد جاء فى بعض نصائحهم الذهبية:

«لا تمش إلى موضع لا تمضغ فيه شيئاً»

فقال بنان:

— لو عرفنا موضع المضغ ...

فأجاب أشعب:

— لمشينا إليه دهراً.

وتنهد الرجلان، ومضيا فى السير. وإذا الفرج يلوح لهما عن كثب فى هيئة عرس فى طرف المدينة، قد نمت أنواره عن عظم شأنه. فصاحا معاً صيحة واحدة. وركضا إليه. ولكنهما وجدا دونهما بابا قد ارتج وبوابا وقاحا غليظ الطبع يسب من لا يعرف من القادمين، ويدفع بيده فى صدورهم. فعلما أن لا سبيل إلى الدخول إلا بالحيلة. فانصرف كل منهما يدبر لنفسه أمراً.

وانطلق أشعب من ساعته يسأل عن صاحب العرس إن كان له ولد غائب أو شريك فى سفر، فعلم أن له

ولدا فى اليمن هو أخ للعروس ، فأخذ فى الحال ورقة بيضاء فطواها وختمها وليس فى بطنها شيء وجعل العنوان : «من الأخ إلى العروس» ثم أقبل متدللا ، فقعقع الباب قعقعة شديدة ، فقال له البواب :

— من أنت ؟

فقال أشعب :

— أنا رسول من عند أخى العروس .

ففتح له الباب . وتلقاه صاحب البيت فرحا قائلا له :

— كيف فارقت ولدى ؟

فقال أشعب :

— بأحسن حال وما أقدر أن أكلمك من الجوع .

فأمر صاحب العرس بالطعام فقدم إلى أشعب ، فجعل يأكل . ولم يطق صاحب الدار انتظاراً فقال :

— أما معك رسالة ؟

obeikandl.com

فقال أشعب :

— نعم .

ودفع إليه بالورقة . فأخذها الرجل فوجد خاتمها طريا . فقال :

— أرى الطين طريا ؟

فأجاب أشعب وفمه منتفخ بالطعام :

— نعم ، وأعجب من هذا أنه ليس فى بطن الرسالة ولا حرف واحد ، لأن ولدك من العجلة لم يكتب فيه شيئاً .

فنظر إليه صاحب العرس شزرا وقال له :

— أطفيلى أنت ؟

فأجاب أشعب وهو يمضغ :

— نعم ، أصلحك الله .

فقال الرجل :

— كل ، لا هنأك الله !

obeikandl.com

* * *

أما بنان فقد حار ماذا يصنع للدخول . ثم تذكر أن في يده خاتما بقى له من أيام العز . فذهب من فوره إلى بقال فرهنه عنده على عشرة أقداح ، وجاء إلى باب العرس يصيح :

— يابواب افتح لى !

— من أنت ؟

— أراك لا تعرفنى . أنا الذى بعثونى أشترى لهم الأقداح .

ففتح له البواب . فدخل بنان فأكل هو أيضاً وشرب مع القوم ، حتى فرغ فقام وأخذ الأقداح وخرج فردها على البقال واسترد خاتمه .

* * *

لم تكن الحيلة تنقص أشعب وبنان . إنما الذى كان ينقصهما هو العلم بموضع الولائم والأعراس . فإن دون

ذلك ، البحث الطويل والجهد الكثير . ولم يفتح الله عليهما بحل لهذه المعضلة . إلى أن خطر على بال بنان يوماً خاطر فقال لصاحبه :

— لا يعرف مكان الولائم والأعراس غير غلمان الأزقة والطرق . فإنك لتراهم منتشرين فى كل مكان ، ولهم علم بكل شأن . ولعل من بين عيالك من تشرد مثلهم . فأوص الأشد من أولادك أن يأتينا بالأخبار .

وكان الحق فيما قال ، إذ لم يمض يوم حتى جاء ابن أشعب يجرى ، فأخبرهم أنه مر بباب قوم عندهم وليمة . فأسرعوا ثلاثتهم إلى تلك الدار ودخلوا . وإذا صاحب البيت قد وضع سلماً ، فكلما رأى شخصاً لا يعرفه قال له : « اصعد يا أبى » . فصعد بنان وأشعب وابنه فوجدوا أنفسهم فى غرفة مفروشة . وتوالى الصعود إلى هذه الغرفة حتى وافى فيها ثلاثة عشر طفيليا . ثم رفع السلم . ووضعت الموائد فى أسفل الدار . وبقى أشعب ومن معه

فى العلو ينظرون متحيرين . فقال بعضهم :

— ما مر بنا مثل هذا قط .

فنظر أشعب إلى الحاضرين مليا وقال :

— يا فتيان ما صناعتكم ؟

فقالوا :

— الطفيلية .

فقال لهم :

— ما عندكم فى هذا الأمر الذى وقعنا فيه !

فأجابوا :

— ما عندنا فيه حيلة .

فقال لهم :

— وإذا احتلت لكم حتى تأكلوا وتنزلوا ، تقرون لى أنى أعلمكم التطفيل ؟

فنظروا إليه وقالوا :

— ومن تكون أنت بالله ؟

obeikandl.com

فقال :

— أنا أشعب .

فقالوا للفور :

— قد أقررنا لك قبل أن تحتال لنا .

فقام أشعب ، وأطل على صاحب الدار وضيوفه يأكلون ، فصاح به :

— يا صاحب البيت !

فرفع الرجل رأسه قائلا :

— مالك ؟

فقال له أشعب :

— أيهما أحب إليك ، تصعد إلينا بخوان كبير نأكل وننزل ، أو أرمى بنفسي رأسيا من هذا العلو فيخرج من دارك قتيل ويصير عرسك مأتمًا ؟ ؟

ثم جعل أشعب يجر سراويله ، كأنه يريد أن يعدو ويرمي بنفسه . فجعل صاحب الدار يقول :

obeikandi.com

— أصبر ، ويلك ، لا تفعل !

ثم أصعد إليهم خوانا ، انقضوا عليه انقضاض جوارح الطير . . .

وجعل ابن أشعب يأكل ثم يشرب ثم يأكل . حتى لم يبق شيء يؤكل فقاموا . وعند ذلك . . . انتحى أشعب بابنه ناحية ولطمه هامساً :

— لو جعلت مكان كأس الماء الذى شربته لقيمات .

فأجاب الابن من الفور :

— إن كأس الماء يوسع محلا للقم .

فتأمل أشعب كلام ابنه لحظة ، ثم صفعه ثانية وقال :

— لِمَ لَمْ تنبهني إلى ذلك قبل جلوسنا إلى الخوان !

الفصل العاشر

منذ ذلك اليوم جعل نفر من أولئك الطفيليين الثلاثة عشر يختلفون إلى أشعب ، ويجلسون حوله فى طرف من أطراف السوق ، يستمعون إلى حديثه ويتلقون نصحه . ولزمه واحد من هؤلاء ملازمة الظل . وجعل أحيانا يحمل إلى أشعب بعض الطعام ويتلطف له ويترضاه ليأخذ عنه بعض أساليب تلك الصناعة ، وكان يلح عليه إلحاحا ينم عن شدة تعلقه بالتطفيل ، وجاء هذا التلميذ إلى أستاذه ذلك المساء بطبق فيه تمر وقعد بين يديه كما يقعد كل يوم قائلا له :

— إنصحني !

فوضع أشعب الطبق فى حجره وطفق يأكل ...

ثم تنحنح وقال :

obeikandi.com

— إذا دخلت عرسا ، فلا تتلفت تلفت المريب ، وتخير المجالس ، وإن كان العرس كثير الزحام فلتمض ، ولا تنظر فى عيون الناس ، ليظن أهل المرأة أنك من أهل الرجل ، ويظن أهل الرجل أنك من أهل المرأة ، فإن كان البواب غليظا وقاحا فتبدأ به وتأمره وتنهاه من غير أن تعنف عليه ولكن بين النصيحة والادلال …

وسكت أشعب واشتغل بالتمر ، فقال التلميذ :

— زدنى !

فقال :

— إذا وجدت الطعام فكل منه أكل من لم يره قط ، وتزود منه زاد من لا يراه أبداً .

— زدنى !

— وإذا دعيت إلى وليمة إن شاء الله ، فإياك ثم إياك أن تتأخر إلى آخر الوقت ، بل استخر الله وكن من السبق وأول من يوافى ، واعلم أنه ليس يجىء فى أول

obeikandl.com

الأوقات إلا بجلة الناس وسراتهم ، فقعودك مع مثل هؤلاء فائدة ، وأنت معهم آمن مطمئن مسرور ، تسمع كل حديث حسن وخبر ظريف ، وأنت ريح البدن واسع الموضع طيب المكان ، فالزم هذه الطبقة لا يزايل سوادك بياضهم فتهلك ، فهؤلاء هم الذين يعرفون حقك ويكرمونك ويجلونك ويحلفون بحياتك وتعرف السرور فى وجوههم ، فصلوات الله على هؤلاء وعلى من ولدهم ! . . . وقعودك على أول مائدة فيه خصال كثيرة محمودة ، اعلم يا مغفل أنك أول من يغسل يده ، والخوان بين يديك ، وأول القنينة أنت تشربه ، والبقل الجيد يوضع قدامك ، وأول من يتبخر أنت . ثم إنك تأكل رؤوس القدور ، وكل شىء كثير ، والقدور ملأى ، والماء بارد ، والخباز نشيط ورب المنزل فرح مسرور ، وكل شىء من أمرك مستور أما إذا تأخرت أو تكاسلت إلى آخر الوقت ، فقد عطبت وهلكت . فإنك تصادف الطعام باردا وهو فضلات

القدور ، والرقاق بقايا عجين ، فقد استعملوا الجيد ، والماء سخنا ، وصاحب الوليمة ضجرا متبرما . ذلك أنه لا يقعد على آخر مائدة إلا ضعفى الجيران ومساكين المكان والقوام . فاذا قال لهم صاحب الدار : « قوموا سارعوا إلى الخوان » نهضوا مزدحمين فانبسطوا فى ميدان المضغ ورفعوا قناع الحشمة وألصقوا الأكتاف بالأكتاف كأنهم بنيان مرصوص ، يأكلون ميمنة وميسرة ، وتدور أيديهم على الخوان شرقيا وغربيا وتسمع للقم فى حلوقهم معمعة . فإن قدم لهم جداء وحملان فانما يقدم الجدى أضلاع بلا لحم ، فوقه جلد وحوله « خس » و« هندبا » كأنه كوخ ناطور قد وقع خشبه وبقى القصب قائما . فماذا يكون حال من يأكل مع هؤلاء ؟ إنه يخرج من العرس وما معه من العرس إلا شم الطعام وتمشيش العظام …

وسكت أشعب . فقال صاحبه :

— زدنى .

فقال أشعب :

— وإذا قمت من المائدة وقد تغديت ، فاقعد فى وسط الدار يضربك الهواء ، وادع بالشراب ، فإن أتوك بنبيذ فهو أحب إلىّ رطلا أو رطلين ولا تصب فيه ماء . وإن حلفوا عليك فأدخلوك البيت فلا تقعد فى الصدر ، فإن القعود فى الصدر قعود مغن أو مخرف . وإن كان فى البيت فاكهة كثيرة فاجذب منها إليك ، إذ لا تأمن أن تذهب وتبقى أنت بلا شىء . ولا تكن أنت الساقى . وكن ذنباً ولا تكن رأساً . وإن كان فى المجلس مغنية أو جارية حسنة الوجه فاتق الله فى نفسك ولا تولع بواحدة منهما والزم العافية . وإذا دار النبيذ فى الأقداح فإياك أن تسكر وأن يرى القوم منك زلة أو كلمة غلط فتخرج وقد انهتك سترك عندهم . فإنك إن خلطت وولعت ومزحت فإنما هو صفع كله

وعداوة بين جيرانك . اشرب خمسة أقداح أو ستة أقداح أو سبعة أقداح ولا تسكر . فإن خشيت على نفسك فقم وأنت صحيح وعقلك معك . وإنما شرحت لك كل هذا تفصيلا رغبة فى إسداء النصيحة ، فافهم تعلم ، وتعلم بأدب ، متعك الله بسعة الصدر وطيب الأكل والصبر على المضغ . إنها دعوة مغفول عنها .

وسكت أشعب . وسكت تلميذه . وإذا جماعة من أصحابهما الطفيليين قد أقبلوا يتصايحون مهللين . فعلم أشعب أنها وليمة . فوثب على قدميه وقام التلميذ لقيامه . وصاح أشعب فى الجماعة :

— أين ؟

فقالوا :

— اتبعنا .

فشمر عن ساقيه وقال لهم :

— بل اتبعونى أنتم !

obeikandl.com

فساروا فى أثره . ومشى هو على رأسهم ، ينظر إلى السماء ويدعو الله قائلا :

— اللهم لا تجعل البواب لكّازاً فى الصدور ، دفّاعا فى الظهور ، طرّاحا للقلانس . هب لنا رأفته وبشره وسهل لنا إذنه !

وبلغوا باباً كبيراً قد رش الطريق أمامه وكنس . فاعتدل أشعب ، وانتفخ فى ثيابه ، وشمخ بأنفه وسار متهاديا متمالياً متباطئاً . ودخل غير ناظر إلى البواب . فأفسح له البواب غير مجترئ على اعتراضه . وقد ظن أنه ذو مقام . وتبعه صبيانه وهم يشيرون إليه وينظرون إلى البواب كأنهم يقولون له :

— نحن أصحابه وخلانه

واستجاب الله دعاء أشعب ، فيسر له الدخول . وما شعر أن قدميه فى الدار هو وأصحابه حتى أسرع فجلس وأجلسهم حوله ... ودعى بالطعام ، وحضرت

الموائد ، وكان كل جماعة على مائدة لكثرة الناس .

ونظر أشعب إلى مائدة شهية توضع أمامهم . فالتفت إلى أصحابه وقال لهم :

— افتحوا أفواهكم ، وأقيموا أعناقكم ، وأجيدوا اللف ، وأشرعوا الأكف ، ولا تمضغوا مضغ المتعللين الشباع المتخمين ، واذكروا سوء المنقلب وخيبة المضطرب !

وشمر عن ساعده . وإذا تلميذه قد تعلق بكمه قائلا له :

— إنصحني !

فنظر إليه شزراً . فليس هذا وقت النصائح . والكلام الساعة يفوّت عليه المنفعة وأية نصيحة يطلبها هذا أكثر من وجود الطعام ذاته بين يديه . ولكنه عاد فتذكر هدايا صبيه وأطباقه في أوقات العسر والمحنة . فتلطف له وقال :

— أنظر إلىّ ولا تخالفنى على كل ما أقول !

وجاءوهم بقصعة عليها « سمذان » . فقال أشعب لتلميذه :

— كل من الأحمر . فإن فيه طعمين : طعم السكر وطعم الزعفران .

ولم يدعه يأكل غيره . ثم أتوهم « بالهريسة » فقال أشعب لصبيه :

— كل منها لقمة أو لقمتين أو ثلاثة .

فأكل التلميذ القدر الذى أُمر به ، ولم يزد . وجاءوهم « بالزيرباج » الأحمر :

فقال أشعب :

— كل لقمة أو لقمتين .

ثم أتوهم بالقلايا اليابسة فقال له :

— لا تأكل إلا لقمة أو لقمتين ولا تكثر ، وأولع

obeikandl.com

بهذا الخبز اليابس الذى فى القلية !

ثم جاءوهم « بالبقلية » فقال له :

— كل لقمة أو لقمتين .

ثم أتوهم بالشواء ، فقال له :

— لا تأكل منه شيئاً وابق نفسك . فإن فى كل يوم نصيب الشواء « بدانق » يقوم مقام هذا ويكفيك .

ثم جاءوهم « بالفالوذج » . وكان كثيراً شبيهاً بالصومعة ، فقال لتلميذه :

— إيت من تحت حتى ينهار ، وكلْ وأكثر ، فإنك لا ترى هذا فى كل يوم .

ثم أحضروا لهم « اللوزينج » فقال له :

— أزوج وثلث . فإن متّ فى هذا متّ شهيداً !

ثم أتوهم بطبق عليه دجاج مسمن مشوى ، فهوى عليه وأكل منه اثنين أو ثلاثة وقال لصاحبه :

— كل ولا تقصر ، فإن قيمة هذه ثلاثة دنانير ،

فلا تأكل إلا ما له قيمة !

ولبث أشعب وأصحابه على هذه الحال . وقد شغلهم أمر بطونهم عن مائدة عظيمة فى ناحية من المكان قد وضعت أمام والى المدينة . ولم يفطن أشعب إلى وجود الوالى . ولكن الوالى فطن إليه . وعرفه ، ولكنه كتم ذلك . ومال إلى صاحب البيت وقال له :

— من صاحب القلنسوة الطويلة والطيلسان الأخضر ؟

فقال صاحب الدار :

— أصلح الله الأمير ، هذا رجل يقال له أشعب ، يشهد هذه الولائم دعى أو لم يدع .

فقال الوالى :

— إذا أكل جئنى به

وفرغ الناس من الطعام ، ورفعت الموائد . فأسرع صاحب البيت إلى أشعب وأحضره إلى الوالى . فلما

obeikandi.com

صار بين يديه ، قال له الوالى :

— هل دعاك أحد إلى هذه الوليمة ؟

فوقع أشعب فى الحيرة وقال :

— لا ، أصلحك الله !

فقال الوالى :

— ألا تعلم أن من جاء إلى طعام لم يدع إليه دخل سارقا وأكل حراما ؟

فقال أشعب :

— لا والله ما أكلت إلا حلالا

فنظر إليه الوالى دهشاً :

— كيف ذلك ؟

فأجاب أشعب :

— أليس يقول صاحب الوليمة للخباز : « زد فى كل شىء » ؟ وإذا أراد أن يطعم مائة قدر لمائة وعشرين

obeikandl.com

وهو يقول : « قد يجيئنا من نريد ومن لا نريد » ؟ ! .
فأنا ممن لا يريد .

فابتسم الوالى وأعجبه الجواب وقال لأشعب :

— لقد اقتصصنا منك فيما مضى . ذلك حق المسلمين ولكن اليوم ... سلنى حاجتك ؟

فقال أشعب :

— أطال الله بقاء الأمير ! حاجتى ... تكتب لى منشوراً لا يدخل علىّ أحد فى هذه الصناعة إلا ويدى عليه مطلقة .

فضحك الوالى وهمس فى أذن صاحب الوليمة ثم أمر لأشعب بهدية ، وأمر صاحب الوليمة له أيضاً بهدية .
فخرج أشعب بأطباق من كل لون ...

obeikandl.com

الفصل الحادى عشر

لبث أشعب أياما يسير فى الأسواق فى غير شىء ،
ينتظر أن يوافيه أحد بخبر عرس أو وليمة وهو
ينشد ويغنى :

كل يوم أدور فى عرصة الدار
أشم القتار شم الذباب
فاذا ما رأيت آثار عرس
أو دخان أو دعوة الأصحاب
لم أعرج دون التقحم لا أرهب
سبا أو لكزة البواب

وطال انتظاره . ووقف على رجل يعمل طبقاً من
الخيزران فقال له :

obeikandl.com

— أسألك بالله أن توسعه قليلا وأن تزيد فيه طوقا أو طوقين .

فرفع الخيزرانى رأسه وقال له :

— وما غرضك من ذلك ؟ أتريد أن تشتريه ؟

فقال أشعب :

— لا ، ولكن ربما اشتراه شخص يهدى إلىّ فيه شيئاً ذات يوم .

ثم تركه ومشى . فرأى رجلين يتهامسان ويتساران فى طرف السوق . فوقف على مقربة منهما ينظر إليهما . وإذا تلميذه قد أقبل يقول له :

— لقد بحثت عنك فى مجلسك من السوق .

فقال له أشعب على عجل :

— أوليمة ؟

— لا . ولكنه الشوق إلى حديثك .

فأشاح أشعب بوجهه عنه . وعاد إلى النظر فى

obeikandl.com

وجه الرجلين المتهامسين ، حتى افترقا وذهبا . فقال له تلميذه :

— أتعرفهما ؟

فقال أشعب وهو ينصرف خائباً مع صاحبه :

— لا ، ولكني ما رأيت اثنين يتساران إلا ظننتهما يأمران لى بشيء .

وأطرق أشعب لحظة ، ثم رفع رأسه وقال لصاحبه :

— كأني بك لا تريد أن أزيدك في النصح .

فنظر إليه تلميذه :

— لماذا ؟

فقال أشعب متخابثاً :

— ذلك أني أرى أطباقك قد انقطعت …

فقال الرجل :

— ليس عندى الآن ما يُهدى .

obeikandi.com

فقال أشعب :

— أوليس عندك ما يؤكل ؟

فأجاب الرجل :

— إذا شئت فان داري دارك . فأنت ليس منك حشمة . .

وقاد الرجل أشعب إلى بيته وأنزله ضيفاً عليه . ودخل على امرأته فأوصاها أن تعد لأشعب عشاء طيباً .

وأكل أشعب ، ثم نظر فى الدار وقال :

— عجباً ! أرى أنك من استواء الحال على قدر تحمد الله عليه . فما شأنك وصناعة التطفيل ؟

فقال الرجل :

— لقد علقتها ولا طاقة لى بتركها .

فقال أشعب :

— لو أضفتنى عندك أياما أنصحك ، لما تركتك إلا وقد حذقتها حذقا عظيما !

obeikandi.com

* * *

مكث أشعب في دار الرجل أياماً طويلة حتى ضجر وضجرت امرأته . فقالت المرأة لزوجها ذات ليلة :

— يبقى إلى متى ؟

— كيف لنا أن نعلم مقدار مقامه ؟

فقالت المرأة بعد تفكر :

— أنا أجيئك بالخبر .

فقال زوجها :

— كيف تستطيعين ؟

فقالت :

— إلق بيني وبينك شرا ونتحاكم إليه وأجاذبه الحديث .

ونهضا من ساعتهما فتشاجرا وتظاهرا بالغضب والخصومة ، وانطلقت المرأة إلى أشعب تقول له :

— بالذي يبارك لك في ذهابك غداً ، أينا أظلم ؟

فقال أشعب :

— والذى يبارك لى فى مقامى عندكم شهرا ، ما أعلم !

فأدركت المرأة وأدرك زوجها أن أشعب يطمع فى طول المقام . فسقط فى أيديهما . ولم يعلما ما يصنعان . واغتاظ الرجل وفكر حتى اهتدى إلى حيلة ، فقال لامرأته :

— إذا كان غداً فانى أقول له : كم ذراعا تقفز ، فأقفز أنا من العتبة إلى باب الدار ، فاذا قفز هو فاغلق الباب خلفه .

وكان الغد ، فأحكما التدبير . وجعل الرجل يحتال فى الحديث مع أشعب حتى قال له :

— كيف قفزك ؟

فقال أشعب :

— جيد .

فقام الرجل لساعته فوثب من داخل منزله إلى

obeikandl.com

خارج الدار أذرعا ... وقال لأشعب :

— ثب !

فنهض أشعب ووثب لا إلى الخارج ، بل إلى داخل الدار ذراعين . فوجم الرجل . وقال لأشعب :

— عجباً ! أنا وثبت إلى خارج الدار أذرعا ، وأنت وثبت إلى داخل الباب ذراعين ؟ !

فقال أشعب من فوره :

— ذراعين إلى داخل خير من أربعة إلى « برا » !

obeikandl.com

الفصل الثانى عشر

انفض الناس عن أشعب آخر الأمر . وهرب منه تلاميذه ومريدوه . فقد أيقنوا أنه قد انتهى إلى الوقوع على منازلهم وتطبيق أصول التطفيل على موائدهم . فلبث أشعب أياما وحيدا حزينا لا يجد أنيساً ولا رفيقاً ، ولا يظفر بغداء ولا بعشاء . وخطر على باله صديقه بنان . ولم يدر أين اختفى . فخرج يبحث عنه حتى قنط من الاهتداء إليه ، فقعد فى أول السوق يفكر فى أمر غده . وإذا بنان قد أقبل يحمل قوساً ونشابا ويجر كلبا ، فما رآه أشعب حتى صاح به :

— أين كنت ؟ أخزاك الله !

فقال بنان :

— فى الصيد ، خيبك الله !

obeikandi.com

— الصيد !

— نعم ، صيد الطير والظباء . إنه لعمل أجدى عليك من هـذا القعود تنتظر ما لا يجيء ، قم معي إلى الرزق الحلال ، تستمتع بالصيد الشهي واللحم الطري والهواء النقي ...

فنظر أشعب إلى ما في يد صاحبه وقال :

— واين لك بالقوس والنشاب ؟

— بعت خاتمي واشتريت كل ماترى .

— وأنا ماذا أصنع ؟

— إصنع مثل ما صنعت أنا .

— ليس عندي شيء يباع .

— أو ليس عند امرأتك أو عيالك شيء ؟

فنهض أشعب لوقته ، وقال لبنان :

— انتظر ها هنا حتى أعود .

ومشى إلى بيته . وأشعب لا يذكر بيتـه إلا يوم

obeikandi.com

تضيق به الدنيا ، فصادف الكندى بالباب . . .

فما رآه الكندى حتى خف إليه وعانقه عناق المشتاق وقال له فى صوت العتاب :

— ألا عدتنى وقد كنت مريضاً ؟

فقال أشعب :

— جعلت فداك ، متى مرضت ؟

فقال الكندى :

— بعد أربعين يوما من تاريخ اليوم الذى أهديتك فيه القميص .

فقال أشعب وهو يحسب عدد الأيام فى نفسه :

— بعد أربعين يوما من تاريخ البعثة بالقميص ! أى منذ متى على التحقيق ؟ إن هذا التاريخ والله ولا التاريخ القبطى !

ثم ترك الحساب والتفت إلى الكندى قائلا :

obeikandl.com

— الحمد لله على كل حال ، إذ رأيتك وقد رد الله إليك العافية .

ورأى أشعب أن ينتفع بهـذا الشوق والود . وحدثته نفسه أن يفضى إلى الكندى بما جاء له . فجلس إلى جواره وتنحنح وقال :

— لى إليك حاجة .

فقال الكندى على عجل :

— ولى إليك أنا أيضاً حاجة .

فقال أشعب واجماً :

— وما حاجتك ؟

فقال الكندى :

— لست أذكرها لك حتى تضمن لى قضاءها .

فقال أشعب :

— نعم .

فقال الكندى :

obeikandi.com

— حاجتى أن لا تسألنى هذه الحاجة .

فقال أشعب :

— إنك لاتدرى ما هى ؟

— بلى . قد دريت .

— فما هى ؟

فقال الكندى :

— هى حاجة ، وليس يكون الشىء حاجة إلا وهى تخرج إلى شىء من الكلفة .

فقال أشعب متخابثاً :

— هذا حق . ولكن ... أنت خير من يتكلف لى . وقد جئتك أسألك أن تسلفنى وتؤخرنى ...

فقال الكندى :

— هاتان حاجتان .

فقال أشعب :

— نعم

obeikandi.com

فقال الكندى :

— وإذا قضيت لك إحداهما ؟

فقال أشعب من فوره :

— رضيت .

فقال الكندى :

— أنا أؤخرك ما شئت ولا أسلفك .

فيئس أشعب منه . ولم ير فى الكلام معه غير إنفاق الوقت فى غير طائل . فقام يريد الذهاب .

فتفكر الكندى لحظة ثم صاح به :

— والله لا تنصرف خائبا .

فوقف أشعب دهشا . ومضى الكندى يقول :

— أما الدرهم فأنت تعلم أن ليس من عادتى إخراجه فهو متى ألقى فى الكيس سكن على اسم الله فلا يهان ولا يذل ولا يزعج . أما إذا شئت فإنى أهدى إليك قربة

من عسل الرطب ، جاءتنى هدية من البصرة فبعها إن أردت واقض حاجتك !

فعجب أشعب . ولم يصدق أذنه . وأنكر ذلك من مذهب الكندى . ولم يعرف جهة تدبيره . وهو يعلم أنه إنما يجزع من الإعطاء وهو عدوه . وأما الأخذ فهو ضالته وأمنيته ، وأنه لو أعطى أفاعي سجستان وثعابين مصر وحيات الأهواز لأخذها إذا كان اسم الأخذ واقعاً عليها . فكيف يعطيه هذه الهدية التى جاءته ، بهذا الكرم ! وجعل أشعب يحتال عليه ليعرف منه السبب . والكندى يتمنع ويتعصر . ثم باح بسره آخر الأمر قائلا :

— هذه الهدية التى جاءتنى ، خسائرها أضعاف مكاسبها ؛ وأخذها عندى من أسباب الأدبار والدمار .

فقال له أشعب :

— لعل أول خسارة احتمال الشكر عليها برد نظيرها !

فقال الكندى :

— هذا لم يخطر لى قط على بال .

فقال أشعب :

— هات إذن ما عندك من الأسباب ؟

فقال الكندى :

— أول ذلك كراء الحمال الذى ينقلها إلى البيت . ثم هى على خطر حتى تصير إلى منزلى ، فإذا صارت إلى المنزل صارت سببا لطلب العصيدة والأرز . فإن بعتها فراراً من هذا ، صيرتمونى شهرة وشنعة ، وإن أنا حبستها ذهبت فى العصائد وأشباه العصائد ، وجذب ذلك شراء السمن ، ثم جذب السمن غيره ، وإن أنا جعلت هذا العسل نبيذا ، احتجت إلى كراء القدور وإلى شراء الماء وإلى كراء من يوقد تحته وإلى التفرغ له . فإن وليت ذلك الخادم اسود ثوبها وغرمنا ثمن الأشنان والصابون . وازدادت فى الطمع على قدر الزيادة فى العمل .. فإن تغاضينا

وصنعنا النبيذ على رغم ذلك ، وعلم الصديق أو النديم أن عندي نبيذا دق الباب دق المدل ، فإن حجبناه فبلاء ، وإن أدخلناه فشقاء ، إذ لابد له من دريهم لحم ومن طسوج نقل وقيراط ريحان ومن أبزار للقدر وحطب للوقود ، وهذا كله غرم ، إن رضيت به فقد شاركت المسرفين وفارقت إخواني من المصلحين ، فإذا صرت كذلك فقد ذهب كسبي من مال غيري وصار غيري يكتسب مني وأنا لو ابتليت بأحدهما لم أقم له ، فكيف إذا ابتليت بأن أعطي ولا آخذ ؛ أعوذ بالله من الخذلان بعد العصمة .

* * *

أخذ أشعب القربة فأعطى نصفها عياله وحمل النصف الآخر إلى السوق فباعه بما بلغ . وذهب إلى بنان فأخبره الخبر فضحك ، وضحكا . ثم نهضا . وقال بنان لصاحبه :

— هلمّ نشترى لك قوساً . فما معك يكفى لشرائها ؟

فنظر أشعب إلى النقود فى كفه وقال :

— أنا الآن فى أمان من الجوع ليلتين أو ثلاث أو أربع .

فقال بنان :

— أتضيع رأس المال فى طعام ليلتين وتقعد بعد ذلك تتضور .

فقال أشعب :

— وهل تريد أن أضيع طعاماً مضموناً فى يدى بطعام ما زال هائماً فى الخلاء والسماء قد يصاد وقد لا يصاد ؟

واشتد الخلاف بينهما . واحتال بنان حتى أخذ النقود فى يده . فجذب صاحبه من كمه ومشى به قسراً إلى البائع فاختار له قوساً ، وضعها فى يده . فامسك بها

obeikandi.com

أشعب ونظر فيها وهدأ لمنظرها وارتاحت نفسه لحملها .

فقال للبائع :

— كم ثمنها ؟

فقال الرجل :

— أقل ثمنها دينار .

فصاح أشعب :

— دينار ! والله لو انى إذا رميت بها طائراً فى السماء وقع مشويا بين رغيفين ، مادفعت فيها ديناراً أبداً !

فنظر البائع إلى بنان نظرة المستجير . فتدخل بنان فى الأمر وقال لصاحبه همسا :

— ليس فى الثمن غلو . فلقد اشتريت قوسى هذه بأكثر من دينار !

وذكر بنان أن المال معه ، فلم ينتظر رأى صديقه وأسرع فأعطى البائع الثمن . وجذب ذراع أشعب . وانصرف به ...

obeikandi.com

* * *

لم تمض ساعة حتى كان الصديقان قد خرجا من المدينة وضربا فى الفلوات ، وأوغلا فى الخلاء . . كل يحمل قوسه ونشابه وخلفهما الكلب . وعيناهما شائمة بين الأرض والسماء ، يبحثان عن الصيد . ومضى النهار وهما فى مشى وبحث وكد وانتظار ، وإذا الكلب ينبح فجأة وينطلق فى أثر شىء مر أمامهما كالبرق . فنظرا ، فإذا ظبى قد عنّ لهما . فوقفا . ووقف قلباهما من الفرح والاضطراب . وأمسك كل بقوسه . ورمى بنان الظبى فأخطأه . ورماه أشعب فأخطأه وأصاب الكلب . وهرب الصيد ، ومات الكلب . وجلس الصيادان ، وقد أضناهما التعب والجوع والفجيعة فى ثالثهما ...

الفصل الثالث عشر

طال جلوس الصديقين وإطراقهما ، واشتد جوعهما . فرفع أشعب رأسه وقال لصاحبه :

— قد جربنا صيد الظباء فلنعمد إلى صيد الموائد .

ثم نهض ونظر إلى الأفق فوجد نخلا كثيرا فقال :

— أرى قرية قريبة . هلم إليها .

وأمسك بيد بنان . وسارا حتى بلغا القرية ، فإذا هما أمام دار قد مات صاحبها ، ونساء القرية يلطمن خدودهن ، ويضربن صدورهن . ورجالها قد كوى الجزع أفئدتهم . والميت فى صحن الدار قد سخن ماؤه ليغسل ، وخيطت أثوابه ليكفن . فعلم أشعب وبنان أن لا أكل ولا طعام فى مثل هذه القرية الليلة . وخطر على بال أشعب خاطر . ودفعه الجوع إلى الحيلة ، فغمز ،

obeikandi.com

صاحبه ، ثم تركه وتقدم إلى الميت فجس عرقه وصاح في الناس :

— يا قوم اتقوا الله لا تدفنوه ، فهو حى ، وإنما عرته بهتة . وأنا أسامه إليكم مفتوح العينين بعد يومين !

فقال الناس :

— من أين لك علم ذلك يا هذا ؟

فقال أشعب :

— إن الرجل إذا مات ، برد أسته ، وقد لمست هذا الرجل فعلمت أنه حى .

فتقدم الناس إلى الميت وجعلوا أيديهم فى أسته ، ثم قال بعضهم لبعض :

— الأمر على ما ذكر الرجل ، فافعلوا كما قال ...

وتركوا أشعب يصنع ما يريد ، فقام إلى الميت فنزع ثيابه ثم ألبسه عمامة وعلق عليه تمائم ، وألعقه الزيت وأخلى له الدار ، وقال للناس :

obeikandi.com

— دعوه ولا تروعوه ! وإن سمعتم له أنينا فلا تدخلوا عليه !

وخرج أشعب من دار الميت وقد شاع الخبر بأن الميت قد ردت إليه الحياة . فانهالت الهدايا على أشعب وبنان من كل دار . حتى ورم كيسهما فضة وذهبا ، وامتلأ رحلهما سمنا وجبنا وتمراً . وجهدا فى أن ينتهزا فرصة للهرب فلم يجداها حتى حل الأجل المضروب .

وأقبل الناس على أشعب بعد يومين يستنجزونه الوعد ، فقال لهم :

— هل سمعتم لهذا العليل أنينا أو رابتكم منه حركة ؟

فقالوا :

— لا .

فقال لهم :

— إن لم يكن قد تحرك بعد أن فارقناه ، فلم يجىء بعد وقته . دعوه إلى غد ، فاذا سمعتم صوته فعرفونى

obeikandl.com

لأحتال فى علاجه ، وإصلاح ما فسد من مزاجه .

فقالوا :

— لا تؤخر ذلك عن غد !

فقال :

— لا .

وجاء الصباح وانتشر الضوء ، فجاءه الرجال والنساء أفواجا وصاحوا به :

— نحب أن تشفى المريض ، وتدع القال والقيل .

فقال أشعب :

— قوموا بنا إليه !

وذهب معهم إلى الميت ، فخدر عنه التمائم وقال لهم :

— أنيموه على وجهه !

فأناموه . فقال لهم :

— أقيموه على رجليه !

obeikandi.com

فأقاموه . فقال لهم :

— خلوا عن يديه !

ففعلوا . فسقط الميت رأسيا . ولم يدر أشعب ما يفعل ولا ما يقول ، ولم يزد على أن همس :

— إنه حقيقة ميت .

فسقطت على أشعب النعال ، ولطمته الأكف . وتناوله القوم بالصفع والضرب ، وصار إذا رفعت عنه يد وقعت عليه أخرى . ثم تشاغل الناس بتجهيز الميت ، فانسل أشعب وبنان هاربين . حتى أتيا قرية أخرى على شفير واد ، قد جار عليها السيل . وأهلها مغتمون محزونون من خشية الغرق . فتقدم بنان وقد حدثته نفسه أن يبز صديقه فى الاحتيال ، فنظر إليه وابتسم ، ثم صاح فى أهل هذه القرية :

— يا قوم ! أنا أكفيكم شر هذا الماء . وأرد عن هذه القرية ضرره . فأطيعونى !

obeikandl.com

فالتفت الناس إلى بنان فى رجاء وقالوا له فى الحال :

— وما أمرك ؟

فقال بنان :

— اذبحوا فى مجرى هذا الماء بقرة صفراء ، وأتونى بجارية جميلة عذراء . وصلوا خلفى ركعتين لله ؟ فان فعلتم ذلك انثنى الماء عنكم إلى هـذه الصحراء . فان لم ينثن فدمى عليكم حلال !

فقالوا جميعاً :

— نفعل

وقاموا من ساعتهم فذبحوا البقرة ، وزوجوه الجارية ، وقام بنان إلى الركعتين يصليهما ، وهو يقول :

— يا قوم ! احفظوا أنفسكم لا يقع منكم سهو فى القيام أو فى الركوع ، فمتى سهونا أو هفونا ذهب عملنا باطلا . واصبروا على الركعتين فمسافتهما طويلة !..

وقام بنان للركعة الأولى فأطال الوقوف حتى كادت

obeikandl.com

تتخلع أضلاع الناس . وسجد سجدة ظنوا معها أنه قد راح في سبات . ولم يجرؤوا على رفع الرؤوس ، خشية أن يذهب جهدهم في غير طائل . إلى أن جاء وقت السجدة الثانية ، فأومأ بنان إلى أشعب ، وانسلا ، فأخذا طريق الوادي ، وتركا أهل القرية ساجدين ، لا يدري أحد ما صنع الدهر بهم ...

* * *

مشى أشعب يحمل الزاد والمال ، ومشى خلفه بنان مع الجارية الحسناء التي زوجوها منه . وجعلوا يضربون في الفلاة على غير هدى ، حتى أشرفوا على الهلاك . وإذا هم يسمعون صهيل خيل ، فالتفتوا فوجدوا جماعة مسافرين إلى البصرة ، فركبوا معهم . وقد اطمأنت قلوبهم وأمنوا على أنفسهم وعلى الغنيمة ، وما كادوا يوغلون في بطن الصحراء . حتى عنّ لهم فارس ، جعل ينظر في القوم ، إلى أن وقع بصره على أشعب ، ورآه وحيداً منفرداً

بين الجماعة ، فنزل عن فرسه ، وتقدم إليه وقبل قدميه ، فنظر إليه أشعب ، فوجد وجهاً متهللا ، لفتى أخضر الشارب ، ملآن الساعد ، قوى العضل ، ظريف اللحظ ، لطيف الحديث .

فقال له :

— مالك ؟

فقال الشاب :

— أنا عبد بعض الملوك هم بقتلى ، فهمت على وجهى إلى حيث ترانى . وأنا اليوم عبدك ومالى مالك .

فقال أشعب :

— بشرى لك وبك !

ورأت الجماعة ذلك ، فغبطت أشعب على هذا العبد وهنأته ، وجعل العبد ينظر فتقتلهم ألحاظه ، وينطق فتفتنهم ألفاظه . ثم قال :

— يا سادة ! إن فى سفح هذا الجبل عينا ، وقد

obeikandi.com

ركبتم فلاة طويله ، فخذوا من هنالك الماء !

فلووا أعنة الجياد إلى حيث أشار . وبلغوا الجبل وقد صهرت الهاجرة الأبدان .

فقال لهم :

— ألا تقيلون فى هذا الظل الرحب ، على هذا الماء الزلال !

فقالوا :

— أنت وذاك .

فنزل عن فرسه . وحل منطقته . فما استتر عنهم إلا بغلالة تنم على بدنه ، فما شكوا أنه خاصم الولدان ففارق الجنة وهرب من رضوان . وعمد إلى السروج فحطها وإلى الخيل فحش لها العشب . وإلى الأمكنة فكنسها ورشها . وقد حارت البصائر فيه . ووقفت الأبصار عليه .

فقال له أشعب :

obeikandi.com

— يا فتى ! ما ألطفك فى الخدمة وأحسنك فى الجمله ! كيف أشكر الله على النعمة بك !

فقال :

— ما سترونه منى أكثر . أتعجبكم خفتى فى الخدمة وحسنى فى الجملة ؟ فكيف لو رأيتمونى فى الجد والفروسية ، أريكم من حذق طرفا اتزدادوا بى شغفاً ؟؟

فقالوا جميعاً :

— هات !

فعمد إلى قوس أشعب فأخذها ورمى فى السماء سهما ، وأتبعه بآخر شق أجواز الفضاء وقال :

— سأريكم نوعا آخر !

ثم عمد إلى كنانة بنان فحملها وإلى أكرم جواد من جياد القوم فامتطاه . ثم رمى أحد الجماعة بسهم أثبته فى صدره ، وعاجل آخر بسهم طيره من ظهره .

فصاح أشعب :

obeikandl.com

— ويحك ، ما تصنع !

فقال الفتى ، وقد تغير صوته :

— اسكت يا لكع ! فليشد كل منكم يد رفيقه وإلا اختطفت روحه !

فلم يدر القوم ما يصنعون ؟ فخيلهم مربوطة وسروجهم محطوطة وأسلحتهم بعيدة ، وهو راكب وهم على أقدامهم ، والقوس فى يده يرشق بها الظهور ، ورأت الجماعة الجد والعزم فى عين الفتى ، فشد بعضهم بعضاً من الخوف وبقى أشعب وحده لا يجد من يشد يده . فقال له الفتى :

— أخرج بجلدك عن ثيابك ومالك ، لا أمّ لك !

ثم نزل عن فرسه وجعل يصفع الواحد منهم بعد الآخر ، وينزع ثيابه وكيس ماله وزاده ، حتى جردهم مما يملكون . وعاد فاعتلى فرسه ولكزه لكزة انطلقت به انطلاق السهم فى كبد الفلاة ...

obeikandi.com

* * *

جزع القوم فقد فقدوا الزاد ، وهم الآن لا يملكون الذهاب ولا الرجوع . ووقعوا فى حيرة من أمرهم .
فقال قائل أن خير السبل امتطاء خيلهم والإمعان فى السير إلى البصرة وهى من موضعهم هذا أقرب البلاد اليهم .
فتزودوا من ماء العين ووثبوا الى أفراسهم . وظلوا سائرين حتى لاحت لهم قرية فى طرف من أطراف البصرة ، وكان الجوع قد أوشك أن يقتلهم . فما بلغوا أول دار من دور القرية حتى وثبوا من فوق أفراسهم فوجدوا أنفسهم أمام رجل شيخ قد جلس على باب داره ، فنظر إليهم وقال :

— من أنتم ؟

فقالوا :

— أضياف لم يذوقوا شيئاً يؤكل منذ ليال ثلاث

فابتسم الرجل وقال :

— إجلسوا ؟

وسكت طويلا . ثم نظر فى وجوههم مليًّا . ثم تنهد . ثم ابتسم . ثم تنحنح وقال لهم :

— ما رأيكم يا فتيان فى زبدة متوّجة بعجوة خيبر الواحدة منها تملأ الفم ويوحل فيها الضرس ، عليها لبن قد حلب من نوق مسمنة ، أتشتهونها يا فتيان ؟

فقالوا جميعاً :

— إى والله نشتهيها .

فقهقه الشيخ وقال :

— وعمكم أيضاً يشتهيها .

وصمت لحظة ، ثم قال :

— ما رأيكم يا فتيان فى عصيدة من دقيق قد نخل حتى صار كأنه سحالة الذهب ، وسمن عربى بصرى أنضج حتى قال : « بق بق بق » ، على حواشيها رقاق ملفوف بلحم قد نعم قطعه ، وفوه بالأبازير ، ومزج بالبصل ، وقلى

obeikandi.com

فى الدهن . أفتشتهونها يا فتيان !

فاشرأب كل منهم إلى وصفه . وتحلب ريقهم وتلمظوا وتمطقوا . وقالوا :

— إى والله نشتهيها .

فقهقه الشيخ وقال :

— وعمكم والله لا يبغضها .

وسكت برهة ، ثم قال :

— ما رأيكم يا فتيان فى عنزة من نجد قد أكلت الشيح ، والقيصوم والهشيم ، حتى ورى مخها ، وكثر شحمها وطاب لحمها . تنضج لكم من غير امتحاش أو إنهاء . وتقدم إليكم على خوان منضد بالبقل والخبز ، فتوضع بينكم تتساقط عرقاً وتتسايل مرقاً . أفتشتهونها يا فتيان ؟

فقالوا :

— إى والله نشتهيها .

obeikandi.com

فقال الرجل :

— وعمكم والله يرقص لها .

ولم تطق الجماعة أكثر من ذلك . فوثب بعضهم إلى الرجل بالسيف قائلين :

— ما يكفى ما بنا من عض الجوع ، حتى تسخر منا ! . .

وقاموا وانفضوا عنه وهم يسبونه ويدعون عليه . . . وأسرعوا فى الدخول إلى مدينة البصرة حيث تفرقوا ، وذهب كل لشأنه . وأخبرت الجارية زوجها « بنان » أن لها أهلاً فى البصرة ، يضيفونهما فانطلق معها بنان إلى أهلها . وتركا أشعب وحده . . .

الفصل الرابع عشر

جلس أشعب على رأس الطريق وحيداً غريباً فى هذا البلد لا يعرف أحداً فيه . ولا مال معه ولا زاد . وقد أضرّ به الجوع ، فجعل يتنهد ويقول لنفسه :

— لعن الله المال الحرام ! كلما جمعناه ، ذهب عنا سريعاً . وعدنا شراً مما كنا !

وسمع خلفه جلبة ، فالتفت ، فرأى عشرة رجال مجتمعين . فصاح :

— إنه الفرج .

ونهض نشيطاً ، وانسل فدخل وسطهم وهو يقول فى نفسه :

— ما اجتمع هؤلاء إلا لوليمة !

ولم يلبث أن جاء من يقود هؤلاء العشرة ويمضى

obeikandi.com

بهم ، حتى انتهوا إلى زورق قد أعدّ لهم . فأدخلوا الزورق فقال أشعب لنفسه :

— هى نزهة .

ودخل معهم . وإذا هو يرى الرجال العشرة قد قيدوا بالحديد ، وقيد هو معهم . وإذا هو يعلم أن هؤلاء عشرة من الزنادقة ذكروا بالإسم للمأمون ، فأمر أن يحملوا إليه . فحملوا له . ولم يلبث أشعب أن وجد الزورق قد وصل إلى بغداد . وإذا هو يساق ضمن العشرة ، حتى أدخلوا على المأمون . وجعل المأمون يدعو بأسمائهم رجلا رجلا ، فيأمر بضرب رقابهم ، حتى استوفى العدة وبقى أشعب . فدهش المأمون وقال للموكلين :

— ما هذا ؟

فقالوا :

— والله ما ندرى يا أمير المؤمنين ، غير أنّا وجدناه مع القوم فجئنا به .

obeikandi.com

فالتفت المأمون إلى أشعب قائلا :

— ما قصتك ويلك ؟

فصاح أشعب :

— يا أمير المؤمنين ! امرأتى طالق إن كنت أعرف من أحوال هؤلاء شيئا ولا مما يدينون الله به . إنما أنا رجل طفيلى رأيتهم مجتمعين فظننتهم ذاهبين لدعوة .

فقال المأمون :

— ليس هذا مما ينجيك منى ، اضربوا عنقه !

فصاح أشعب :

— أصلحك الله ، إن كنت ولا بد فاعلا فأمر السياف أن يضرب بطنى بالسيف فانه هو الذى ورطنى هذه الورطة !

فالتفت المأمون إلى رجاله وقال :

— يؤدب .

فخرجوا بأشعب وهو ينتفض فى ثيابه رعباً .

وكان وزير المأمون : إبراهيم بن المهدى قائمًا على رأسه ، فلما رأى ذلك لم يستطع كتمان ابتسامه ، وما تمالك أن قال :

— يا أمير المؤمنين هب لى ذنبه ، وأحدثك عن حديث عجيب عن نفسى وقد عشت مثله حياة التطفيل ليلة ! .

فاشتاق المأمون إلى الحديث وقال :

— قل يا إبراهيم !

* * *

قال إبراهيم بن المهدى :

« خرجت يا أمير المؤمنين من عندك ليلة ، فطفت فى سكك بغداد ، فانتهيت إلى موضع ، فشممت روائح أبازير قدور قد فاح طيبها ، فتاقت نفسى إليها ، فوقفت على خياط فقلت :

— لمن هذه الدار ؟

obeikandl.com

قال :

— لرجل من التجار .

قلت :

— ما اسمه ؟

قال :

— فلان بن فلان

فنظرت إلى الدار فإذا بشباك فيها مطل ، فرأيت كفا قد خرجت من الشباك قابضة على عضد ومعصم . فشغلني يا أمير المؤمنين حسن الكف والمعصم عن رائحة القدور . وبقيت باهتا ساعة . ثم أدركني ذهني فقلت للخياط :

— أهو ممن يشرب ؟

قال :

— نعم وأحسب أن عنده الليلة دعوة ، وليس ينادمه إلا تجار مثله مستورون .

obeikandl.com

فبينما أنا كذلك إذ أقبل رجلان نبيلان راكبان من رأس الدرب . فقال الخياط :

— هؤلاء منادموه .

فقلت :

— ما اسماهما ؟ وما كناهما ؟

قال :

— فلان وفلان .

فحركت دابتى وداخلتهما . وقلت لهما :

— جعلت فداكما ، قد استبطأكما أبو فلان أعزه الله.

وسايرتهما حتى بلغا الباب ، فأدخلانى وقدمانى . فدخلنا . فلما رآنى صاحب المنزل لم يشك أنى منهما بسبيل ، أو قادم قدمت عليهما من موضع . فرحب بى وأجلسنى فى أفضل مكان . وجىء بالمائدة وعليها خبز نظيف ، وأتينا بتلك الألوان ، فكان طعمها أطيب من ريحها . فقلت فى نفسى :

— هذه الألوان قد أكلتها ، وبقي الكف والمعصم كيف أصل إلى صاحبتهما ؟ .

ثم رفع الطعام ، وجاؤونا بوضوء فتوضأنا ، وصرنا إلى بيت المنادمة ، فإذا أجمل بيت يا أمير المؤمنين . وجعل صاحب المنزل يلطف بي ويميل عليّ بالحديث ، والندماء لا يشكون أن ذلك منه على معرفة متقدمة . حتى إذا شربنا أقداحا ، خرجت علينا جارية كأنها بان ، تتثنى كالخيزران . فأقبلت فسلمت غير خجلة ، وثنيت لها وسادة فجلست ، وأتى بالعود فوضع في حجرها ، فجسته فاستبنت في جسها حذقها . ثم اندفعت تغني :

توهمها طرفي فأصبح خــــدها
وفيه مكان الوهم من نظري أثر
وصافحها كفي فآلم كفها
فمن مس كفي في أناملها عقر

obeikandl.com

فطربت يا أمير المؤمنين لحسن غنائها . ثم اندفعت تغنى :

أشرت إليها هل عرفت مودتى
فردت بطرف العين إنى على العهد
فحدت عن الإظهار عمداً لسرها
وحادت عن الإظهار أيضاً على عمد

فصحت «ياسلام» ... وجاءنى من الطرب مالا أملك نفسى . ثم اندفعت فغنت الثالث :

أليس عجيباً أن بيتاً يضمنى
وإياك لا نخـــلو ولا نتكلم
سوى أعين تشكو الهوى بجفونها
وتقطيع أنفاس على النار تضرم
إشارة أفواه وغمز حواجب
وتكسير أجفان وكف يسلم

فحسدتها يا أمير المؤمنين على حذقها ومعرفتها

obeikandl.com

بالغناء ، وإصابتها لمعنى الشعر ، وأنها لم تخرج عن الفن الذي ابتدأت به ، فقلت : « بقي عليك يا جارية ... » ، فضربت بعودها الأرض وقالت : « متى كنتم تحضرون مجالسكم البغضاء ! » . فندمت على ما كان مني ؛ ورأيت القوم كأنهم تغيروا لي . فقلت : « أما عندكم عود غير هذا ؟ » قالوا : « بلى » . فأحضروا لي عوداً فأصلحت من شأنه ، ثم غنيت :

ما للمنازل لا يجبن حزينا
أصممن أم قدم المدى فبلينا
راحوا العشية روحة منكورة
إن متن متنا أو حيين حيينا

فما أتممته حتى قامت الجارية فأكبت على رجلي تقبلها وقالت :

— معذرة إليك ، فوالله ما سمعت أحداً يغني هذا الصوت غناءك !.

وقام مولاها وأهل المجلس فعملوا فملها ، وطرب القوم والله واستحثوا الشراب ، فشربوا بالكاسات والطاسات .

ثم اندفعت أغنى :

أبى الله أن تمشى ولا تذكرينى
وقد سفحت عيناى من ذكرك الدما
فردى مصاب القلب أنت قتلته
ولا تتركيه ذاهل العقل مغرما
إلى الله أشكو بخلها وسماحتى
لها عسل منى وتبذل علقما

فطرب القوم حتى خرجوا من عقولهم . فأمسكت عنهم ساعة حتى تراجعوا . ثم اندفعت أغنى الثالث :

هذا محبك مطوى على كمده
حرا مدامعه تجرى على جسده

obeikandi.com

له يد تسأل الرحمن راحته
مما جنى ويد أخرى على كبده

فجعلت الجارية تصيح :

— هذا هو الغناء والله يا سيدى لا ما كنا فيه !

وسكر القوم . وكان صاحب المنزل حسن الشرب صحيح العقل ، فأمر غلمانه أن يخرجوهم ويحفظوهم إلى منازلهم . وخلوت معه .

فلما شربنا أقداحا قال :

— يا هذا ، ذهب ما مضى من أيامى ضياعا إذ كنت لا أعرفك ، فمن أنت يا مولاى ؟

ولم يزل يلح حتى أخبرته الخبر . فقام وقبل رأسى وقال :

— وأنا أعجب يا سيدى أن يكون هذا الأدب إلا لمثلك ، وأنّى لى أجالس الخلفاء ولا أشعر !

ثم سألنى عن قصتى فأخبرته ، حتى بلغت خبر الكف والمعصم ...

obeikandl.com

فقال للجارية :

— قومى فقولى لفلانة تنزل .

ثم لم يزل ينزل لى جواريه واحدة بعد أخرى ، وانظر إلى كفها ومعصمها وأقول :

— ليست هى .

حتى قال :

— والله ما بقى غـير زوجتى وأختى ، ووالله لأنزلنهما إليك .

فعجبت من كرمه وسعة صدره فقلت :

— جعلت فداءك ، أبدأ بالأخت قبل الزوجة ، فعساها هى !

فبرزت . فلما رأيت كفها ومعصمها .

قلت :

— هى هذه !

فأمر غلمانه فمضوا إلى عشرة مشايخ من جلة جيرانه ،

obeikandl.com

فاقبلوا بهم ، وأمر ببدرتين فيهما عشرون ألف درهم فقال للمشايخ :

— هــذه أختى فلانة أشهدكم أنى قد زوجتها من سيدى إبراهيم بن المهدى ، وأمهرتها عنه عشرين ألفا .

ثم دفع إليها البدرة . وفرق الأخرى على المشايخ وقال لهم : انصرفوا . ثم قال لى :

— يا سـيدى ، أمهد لك بعض البيوت فتنام مع أهلك ؟.

فاحتشمنى ما رأيت من كرمه ، فقلت :

— بل أحملها إلى منزلى .

قال :

— ما شئت .

فحملتها إلى منزلى . فوالله يا أمير المؤمنين لقد أتبعها من الجهاز ما ضاق عنه بعض بيوتنا ! . . فأولدتها هذا القائم على رأس أمير المؤمنين ... »

obeikandl.com

الفصل الخامس عشر

عجب المأمون لحديث وزيره ، ولتطفيله الظريف تلك الليلة ، فأمر بإحضار أشعب الطفيلى . فجاء أشعب يتعثر خوفا . فابتدره المأمون قائلا :

— هل لك فى « ثريدة » مغمورة بالزبد ، مشققة باللحم ، تفوح بروائح الأبازير ؟

فقال أشعب :

— وأضرب كم ؟

فكتم المأمون ضحكه وقال :

— بل تأكلها من غير ضرب .

فنظر أشعب إلى المأمون مليا ثم قال :

— هذا ما لا يكون ، ولـكن كم الضرب فأتقدم على بصيرة .

obeikandl.com

فضحك المأمون ، وضحك وزيره . ثم التفت المأمون إلى أشعب قائلا :

— قد علمت أنك ذو بصر بالطعام . فما تقول في « اللوزينج » و « الفالوذج » . . . أيهما أطيب ؟

فأجاب أشعب :

— يا أمير المؤمنين ، لا أقضي على غائب .

فأمر المأمون ، فأحضرت مائدة عليها هذان اللونان .

وقال لأشعب :

— اقض بينهما الآن .

فانقض أشعب من فرط جوعه على الخوان . وجعل يأكل من « الفالوذج » ساعة ، ومن « اللوزينج » ساعة وهو ساكت لا ينبس بحرف . وقد انتفخ فمه بالطعام وازدحم حلقه من الازدراد . فقال المأمون :

— قل . . . أيهما أطيب ؟

وقال الوزير :

obeikandl.com

— اقض لأحدهما .

فتردد أشعب وحار بين اللونين . ثم عاد فأخذ من هذا لقمة ومن ذاك لقمة . وقال :

— يا أمير المؤمنين ! كلما أردت أن أقضى لأحدهما أدلى الآخر بحجته .

فضحك المأمون واستظرفه وقال له :

— تشهى علىّ . . أى لون تريد ؟

فاطمأن أشعب وقال مترنما :

ألا ليت خبزاً قد تسربل رائباً

وخيلا من البرنى فرسانها الزبد

فأمر المأمون أن يحضروا له ما اشتهى . وجعل ينظر إليه وهو يأكل حتى فرغ . فقال له :

— شبعت ؟

فقال أشعب :

— نعم أطال الله بقاء أمير المؤمنين .

obeikandi.com

وتأمل المأمون ثياب أشعب فلم ترقه . وقال له :

— لست أرى عليك كسوة رائعة !

فلم يجد أشعب ما يقول . ثم تفكر وقال :

— كانت عليّ أصلحك الله ثياب نظيفة . غير أنى قبل أن يأتوا بي إلى أمير المؤمنين كانت قد أخذتنى إغفاءة ، فرأيت رؤيا نصفها حق ونصفها باطل .

فقال المأمون دهشا :

— وكيف ذلك ؟

فقال أشعب :

— رأيت أنى أحمل بدرة من ذهب ، فمن شدة ثقلها عليّ كنت أسلح في ثيابى . ثم انتبهت . فإذا أنا بالسلح ... ولا بدرة .

فضحك المأمون حتى استند إلى الوسادة . وقال :

— نحقق لك النصف الآخر . ولكن اخبرنى قبل ذلك . ممن أنت ؟

obeikandi.com

فقال أشعب :

— من المدينة يا أمير المؤمنين ؟

فقال المأمون :

— وكيف وجدوك بالبصرة ؟

وتذكر أشعب كل ما وقع . فرأى الخير فى أن يوجز فقال :

— خرجت من المدينة للصيد فضللت ، وإذا أنا فى البصرة .

فنظر المأمون إليه مليا وقال له :

— وهل صدت شيئاً ؟

فتنحنح أشعب وقال كالمخاطب لنفسه :

— صدت الكلب .

فضحك المأمون . وأعجبه حديثه . ولبث يصغى إليه إلى نوادره ساعات طويلة . ثم قال له آخر الأمر :

— سل حاجتك .

فقال أشعب :

— كلب صيد أصطاد به .

فقال المأمون متعجباً ضاحكا :

— قد أمرنا لك بكلب تصطاد به

فقال أشعب :

— وغلام يقود الكلب .

فقال المأمون :

— قد أمرنا لك بغلام .

فقال أشعب :

— وخادم تطبخ لنا الصيد .

فقال المأمون :

— وأمرنا لك بخادم .

فقال أشعب :

— ودار نأوى إليها .

فقال المأمون :

obeikandl.com

— أمرنا لك بدار .

فقال أشعب :

— بقى الآن المعاش .

فقال المأمون :

— قد أقطعناك ألف « جريب » عامرة ، وألف « جريب » غامرة .

فقال أشعب :

— وما الغامرة ؟

فقال المأمون :

— التى لا تعمّر .

فقال أشعب من فوره :

— فأنا أقطع أمير المؤمنين خمسين ألفاً من صحارى نجد وفيافى بنى أسد ؟

فضحك المأمون وقال :

— نجعلها لك إذن كلها عامرة .

obeikandi.com

فقال أشعب :

— لم يبق الآن إلا شيئان .

فقال المأمون :

— هات .

فقال أشعب :

— أن تقيم معى فى هذه الضياع جارية حسنة الصوت كنت أعلمها الغناء بالمدينة . يقال لها « رشأ » !

— وكيف هى ؟

فتنهد أشعب وقال مترنماً :

كأنها أفرغت فى قشر لؤلؤة

فى كل جارحة منها لها قمر

فقال المأمون :

— قد زوجناك منها وأمهرناها عنك عشرين ألف درهم ! تلك واحدة . فما الأخرى ؟

فقال أشعب :

obeikandi.com

— الأخرى أن تسمح لى يا أمير المؤمنين أن أعتزل صناعة التطفيل ، وأن أستخلف عليها خليفة من بعدى ، وأن أكتب بذلك عهداً إلى صديق لى يدعى بنان ليكون هو منذ اليوم إمام الطفيليين وعريفهم .

فضحك المأمون وقال :

— وذلك أيضاً لك .

ثم دعى بالكاتب والقرطاس . وقال لأشعب على عهده

فقال أشعب للكاتب :

— اكتب :

« هذا ما عهد أشعب إلى بنان حين استخلفه على إحياء سنته واستنابه فى حفظ رسومه من التطفيل على أهل المدينة ، وما يتصل بها من أكنافها ، ويجرى معها من سوادها وأطرافها ، وذلك لما توسمه فيه من قلة الحياء ، وشدة اللقاء ، وكثرة اللقم ، وجودة الهضم ، ولما

رآه أهلا له من شده مكانه فى هـذه الرفاهية المهملة التى فطن لها ، والرفاعية المطرحة التى اهتدى إليها . والنعم العائدة على لابسيها بملاذ الطعوم ، ومناعم الجسوم ، متوردا على من اتسعت مواد ماله ، وتفرعت شعب حاله ، وأقدره الله على غرائب المأكولات ، واظفره ببدائع الطيبات ، آخذا من كل ذلك بنصيب الشريك المناصف وضاربا فيه بسهم الخليط المفاوض . وهذا عهدى إليه . وحجتى عليه . فليكن بأوامره مؤتمراً ولرسومه متبعا إن شاء الله وبالله التوفيق وعليه التعويل ، وهو حسبنا جميعاً ونعم الوكيل . . » .

وسكت أشعب ونظر فإذا المأمون ووزيره يتقطعان ضحكا ، وهدأ المأمون فقال لأشعب :

— هل بقيت لك حاجة لم تقض ؟

فقال أشعب :

— نعم ، حاجة أخيرة .

فقال المأمون :

— قل .

فقال أشعب :

— أن يأذن لى أمير المؤمنين فى تقبيل يده !

فقال المأمون :

— أما هذه فدعها .

فقال أشعب :

— ما تمنعنى شيئاً أحب إلىّ منها !

وأسرع إلى يد المأمون فاختطفها اختطاف الجائع للرغيف ، ورفعها إلى فمه ، وأشبعها لثما وتقبيلا .

« انتهى »

obeikandi.com